الجاحظ

ومجتمع عصره
في بغداد



بقلم
جميل جبر
دكتور في الآداب

دار صادر
بيروت

الجاحظ

ومجتمع عصره في بغداد

بقلم

جميل جبر

دكتور في الآداب

دار صادر

بيروت

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

توطئة

لعل الميزة الرئيسية التي تفرد بها الجاحظ هي اتخاذه المجتمع مادة لقلمه، وقد شقّ بذلك تياراً جديداً اتّبعه الكتّاب من بعده، كان أولهم حيّان[1].

أجل لم يوجّه الجاحظ كل نتاجه الضخم نحو الدراسة الاجتماعية، شأن ابن خلدون أو غيره من المحدثين، بل تناول بيئة عصره بالنقد والوصف والتحليل في أكثر ما كتب. فما عدا المؤلفات التي تناولت النقد الصرف أو الدراسة «كالبخلاء» و«ذم الكتّاب» و«رسالة القيان» و«رسالة المعلمين» وما إليها، قلّما خلا له اثر من علاقة وثيقة بمجتمعه في كل وجه وكل مضمار. كان يتنقل، هازئاً تارة وجاداً تارة أخرى، بين مختلف المواضيع، من الثقافة، إلى الأديان، إلى الأحزاب والشيع والطبقات. وكان لظروف حياته الخاصة التي أتاحت له أن يعايش كل فئة من فئات الشعب والحكّام، أن جعلت من نتاجه أفضل وأصدق مرآة لعصره.

على رغم هذه الفرادة في الاتّجاه الأدبي لم يُدرس بعد الجاحظ، على هذا الوجه، دراسة مفصلة وافية. لقد عني دارسوه خصوصاً بطريقته الأدبية وأسلوبه العلمي وآرائه الدينية ونهجه الساخر وتوجيهه الفلسفي، وأغضوا عن درسه المجتمع، على أهميته الأكيدة.

---

(1) هو مؤلف كتاب «الإمتاع والمؤانسة» المشهور.

ففي عصر الالتزام الأدبي الذي نعيش فيه ، وقد شاء الأديب الحق أن يكون شاهداً على عصره ليأتي نتاجه من لحم ودم ، يجدر بنا أن نعود إلى الجاحظ ، أول أديب عربي أدّى شهادة جامعة عن مجتمع عصره ففتح الطريق أمام الأدب الملتزم المعاصر .

تلك هي أهم الأسباب التي حدتنا على معالجة هذا الموضوع بالذات رغم وعورة المسلك وتعقّد التحقيق .

جميل جبر

الجاحظ في حياته وبيئته

في البصرة

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الفقيمي. لقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه، أي نتوئها. وكان هذا اللقب لا يُعجبه، على ما يظهر، فيتبرم بمن يدعوه به، ويجهد نفسه لكي يُقرّر في أذهان الناس أن اسمه «عمرو»، وأنه يُحب أن يُدعى بهذا الاسم، وأن اسم «عمرو» أرشق الأسماء وأخفّها وأظرفها وأسهلها مخرجاً.

كان قصير القامة، دميم الوجه، يُضرب المثل ببشاعته[1]. ولكنه كان خفيف الروح، حسن العشرة، ظريف النكات، يتهافت الناس إلى الاستمتاع بنوادره.

ولد أبو عثمان في البصرة حوالى سنة 776 (160هـ)، ومات فيها سنة 869 (255هـ). وقد اختلفت آراء المؤرخين بصدد تاريخَي ولادته وموته إلاَّ أنَّ معظمهم اتفق على ما ذكرناه.

وتضاربت الآراء كذلك بشأن أصله، فمنها ما يُفيد أنه كناني ليثي، ومنها ما يؤكد أنه مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني، وأن جدّه أسود يقال له فزارة وكان جمّالاً عند ابن قلع[2].

نشأ يتيماً ميّالاً إلى العلم، فكان يخالط المسجديين[3] في البصرة تارة، ويختلف

(1) لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلا دون قبح الجاحظ.

(2) تاريخ ابن عساكر.

(3) طائفة من العلماء وأرباب النحو واللغة كانت تجتمع في مسجد البصرة.

إلى أحد الكتاتيب طوراً. وقد روى شيئاً عن ذكرياته في ذلك العهد قال[1]:

«رأيت كلباً مرّة في الحي، ونحن في الكُتّاب، فعرض له صبي يُسمى مهدياً من أولاد القصابين، وهو قائم يمحو لوحه، فعضّ وجهه، فنقع ثنيه دون موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خدّه، فرمى به ملقياً على وجهه، وجانب شدقه، وترك مقلته صحيحة، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه، وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفزع، وبقي طائر القلب، ثم خيط ذلك الموضع، ورأيته بعد ذلك بشهر، وقد عاد إلى الكُتّاب، وليس في وجهه من الشتر إلا موضع الخيط الذي خيط، فلم ينبح إلى أن برئ، ولا هرّ، ولا دعا بماء، حتى إذا رآه صاح: ردّوه، ولا بال جرواً، ولا عَلَقاً، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير».

تدلنا هذه القصة على دقة الملاحظة التي تميز بها الجاحظ منذ حداثته، فأنماها التمرس من بعد، بقدر ما تدلنا على الطبقة الاجتماعية الفقيرة التي نشأ فيها. فهو عصامي، كان يعمل ويتعلم في آن. ويذكر بعضهم أنه كان يبيع الخبز والسمك بجوار نهر سيحان (في البصرة).

ويروى أن أمه كانت تؤثر أن ينصرف بكليته إلى التجارة ولا يضيع عليه وقتاً ثميناً في الدراسة، فجاءته يوماً، بدل الغداء، بطبق كراريس، فقال:

«ما هذا، قالت: هذا الذي تجيء به، فخرج مغتماً، وجلس في الجامع وموسى ابن عمران جالس، فلما رآه مغتماً، قال له: ما شأنك؟ فحدثه الحديث، فأدخله المنزل، وقرب إليه الطعام، وأعطاه خمسين ديناراً، فدخل السوق، واشترى الدقيق وغيره، وحمله الحمّالون إلى داره، فأنكرت الأم ذلك، وقالت: من أين لك هذا: من الكراريس التي قدمتها إليّ، ثم اتصل بعد ذلك بابن الزيات فأقطعه أربع مائة جريب في الأعالي، قال الحاكم: وهي تعرف بالجاحظية إلى الآن»[2].

---

(1) الحيوان، ج2، صفحة 5.

(2) ذكر المعتزلة لابن المرتضى، صفحة 38.

في بغداد

لم تكن آفاق البصرة[1]، على رحبها، لتكفي أبا عثمان، فانصرف عنها إلى بغداد، عاصمة العالم الإسلامي، في ذلك العهد. وكانت تجتذب إليها نخبة المفكرين وأهل الفن. فهذه المدينة ما كانت يومذاك مركزاً من أهم المراكز الاقتصادية في العالم وحسب، بل كانت أيضاً وخصوصاً عاصمة العلم والأدب والجمال. وكان تساهل الخلفاء العباسيين حافزاً للكتّاب، أيّاً كان مذهبهم وأصلهم، على الإقامة فيها فصارت على حق عين العراق يوم كانت العراق عين العالم. وقد أفاد الجاحظ من جو بغداد هذا لتوسيع ثقافته وتكثيرها.

استدعى المأمون الجاحظ على أثر كتاب وضعه عن «الإمامة» وصدّره ديوان الرسائل. وما انقضت ثلاثة أيام حتى استعفى من منصبه فأُعفي. وكان سهل بن هارون يقول: إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتّاب. وما كان تمرّده الفطري على القيود ليبقيه في الديوان أكثر مما بقي. إلا أنه بقي للخليفة مخلصاً وفياً، فأيسرت حاله بعد بؤس.

سأله أحدهم: يا أبا عثمان، كيف حالك؟ فقال الجاحظ: «سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً، حالي أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ويواتر الخليفة الصلات إلي، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب أفخرها، وأجلس على ألين الطبري، وأتكئ على هذا الريش، ثم اصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج، فقال له الرجل: الفرج ما أنت فيه، قال: بل أحب أن تكون الخلافة لي، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري، ويختلف إلي، فهذا هو الفرج!».

ولّما توفي المأمون لازم الجاحظ محمد بن عبد الملك وزير المعتصم المعروف بابن الزيات وانحرف عن القاضي أحمد بن أبي دؤاد، للعداوة بين أحمد ومحمد،

---

(1) في ذلك العهد كان يتلقى الفصاحة شفاهاً عن الخطباء والشعراء الذين كانوا يترددون إلى أحد أسواق البصرة المعروف بالمربد، وكان يجالس بعض أئمة اللغة كابن وهب والأخفش. ويقال إنه كان يكتري حوانيت الورّاقين ويبيت فيها أحياناً للمطالعة.

فلما قبض على ابن الزيات هرب الجاحظ فقيل له لماذا هربت ؟ فقال : خفت أن أكون ثاني اثنين أذّهما في التنوّر[1] .

غير أن هرب الجاحظ لم ينجّه طويلاً من شر القاضي بن أبي دؤاد ، فقد حدّث اسحق الموصلي قال[2] :

«كنت عند أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات ، فجيء بالجاحظ مقيّداً ، وكان من أصحاب ابن الزيات ، وفي ناحيته ، فلما نظر إليه قال : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدّداً للمساوئ ، وما فتني باستصلاحي لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك إلاّ لفساد طويتك ، ورداءة دخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك ، فقال له الجاحظ : خفّض عليك ، أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن ، أحسن عنك من أن أحسن فتسيء ، وإن تعفو عني حال قدرتك ، أجمل من الانتقام مني ، فقال له ابن أبي دؤاد : قبحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : ﴿وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، أن أخذه أليم شديد﴾ قال : تلاوتها تأويلها ، أعزّ الله القاضي ، فقال : جيئوا بحدّاد ، فقال : أعز الله القاضي ، ليفك عني أو ليزيدني ، فقال : بل ليفكّ عنك ، فجيء بالحداد ، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فإن الضرر على ساقي ، وليس بجذع ولا ساجة ! فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دؤاد لمحمد بن منصور وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال : يا غلام ، صر به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب ،

---

(1) كان ابن الزيّات قد صنع ، في أيام وزارته ، تنوراً من حديد يعذّب فيه المصادرين فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور .

(2) معجم الأدباء لياقوت ، جزء 6 ، صفحة 58 .

وطويلة، وخفاً، فلبس ذلك، ثم أتاه فتصدر في مجلسه، ثم اقبل عليه وقال: هات الآن حديثك يا أبا عثمان».

عند أبي دؤاد

وقدم أبو عثمان كتابه «البيان والتبيين» للقاضي ابن أبي دؤاد فأعطاه هذا خمسة آلاف دينار وأقام زمناً على عهده. فلما مرض وخلفه في القضاء ابنه أبو الوليد، التحق به الجاحظ حتى صرف من الخدمة، ثم لزم الفتح بن خاقان وصادقه على ود.

وذكر الجاحظ من بعد للمتوكل، لتأديب بعض ولده. فلما رآه الخليفة استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه. فما أن خرج من عنده حتى لقي محمد بن إبراهيم، حاكم فارس، وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام، فعرض عليه الخروج معه والانحدار في حرّاقته[1] بسرّ من رأى[2] ـ فركبا في الحراقة حتى انتهيا إلى فم القاطول[3] فنصب هناك ستارة وأمر الغناء. فنعم الجاحظ، ما شاء التنعم، بالنغم الشجي، وكان يأبى الحياة أن تمر على غير زهو ورفاه.

وهذا الميل إلى العيش الرخيّ دفع الجاحظ إلى التنقل باستمرار، فإذا هو دائماً على سفر، وإذا هو لا يكتفي بالعراق مقرّاً، فتركه إلى مصر وإلى دمشق وإلى إنطاكية، وإلى غير بلدان يسرّح بصره وبصيرته حيثما يحل ويدوّن انطباعاته بأسلوب فكه رشيق. وقد ذكر في سفره إلى إنطاكية النادرة التالية:

«إني رأيت الثلث الأعلى من منارة مسجد إنطاكية أظهر جدّة من الثلثين السفلين، فقلت لهم: ما بال هذا الثلث الأعلى أجد وأطرى؟ قالوا: لأن تنّينا ترفّع من بحرنا هذا، فكان لا يمر بشيء إلا أهلكه، فمرّ على المدينة في الهواء،

---

(1) مركب صغير.

(2) تعرف اليوم بسمرّا.

(3) اسم نهر.

محاذياً لرأس هذه المنارة، وكان أعلى مما هي عليه، فضربه بذنبه ضربة حذفت من الجميع أكثر من هذا المقدار، فأعادوه بعد ذلك، ولذلك اختلف في المنظر».

الشيخوخة

غير أن الزمان الذي بسم للجاحظ في شبابه، على شيء من العبوس، ما عتّم أن ناوأه دونما رحمة في مرحلة العمر الأخيرة. لقد أصيب أبو عثمان بالفالج فاعتزل الناس، إلا أقلّهم، وبرم بحظه. وفي تلك السنين العصيبة كان القلم رفيقه الدائم يستعينه على مصابه وعلى جحود خلاّنه. وكتب عهد ذاك في كتاب «الحيوان» مبرّراً اضطراب بعض فصوله قال:

«وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أولى ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب».

إبّان مرضه هذا مضى أبو معاذ الخولي المتطبّب وصحبه يعودونه في منزله. فلما أخذوا مجلسه أتى رسول المتوكل، فقال له الجاحظ: «وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل، ولعاب سائل. ثم أقبل على أبي معاذ ورفقائه وقال لهم: «ما تقولون في رجل له شقّان، أحدهما لو غُرز بالمال ما أحسّ، والشقّ الآخر يمرّ به الذباب فيغوث، وأكثر ما أشكوه الثمانون»[1].

وقضى في فراشه السنين الطوال وهو يغالب الداء متيائساً فاضطر آخر الأمر إلى الانقطاع حتى عن القلم والكتاب. وزاره المبرّد، وهو على ذلك البؤس، فسأله كيف حاله، فقال: «كيف يكون من نصفه مفلوج لو حزّ بالمناشير لما شعر به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه، وأشدّ من ذلك ستّ وتسعون سنة أنا فيها»[2] ثم أنشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشباب

---

(1) أمالي القالي، الجزء الأول، صفحة 5.

(2) معجم الأدباء لياقوت، الجزء 6، صفحة 79.

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب   دريس كالجديد من الثياب

وكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدّة حرارته ، بينما كان النصف الأيسر شديد البرد . لقد اصطلحت الأضداد على جسده ، على غير رحمة ، فكان إن أكل بارداً أخذ برجله ، وإن أكل حارّاً أخذ برأسه . وما زال به الداء عنيفاً لا يهاود حتى قضى عليه انطفاء .

* * *

بين مدّ مرهق وجزر مشرق ، تميّزت حياة الجاحظ بطابع خاص . كان دأبه أن يوطد مقامه في عاصمة الإسلام ، بغداد ، بفضل مواهبه وبفضل الاستقلال الذي يوفره المال أو العصمة التي يؤمنها عطف الحاكمين سعيداً . كان أقصى مناه أن يحوط إقامته في حاضرة الرشيد بالأمن والرفاء الضروريين له ليدافع عن مبادئه المنطقية وينشرها ويتسنى له العيش الرغد الذي أراد .

أجل كلفته كثيراً حماية البلاط وما تقتضيه من محاباة وتملّق ، لكنها أنالته فوائد جمّة . حسبها أنها أتاحت له الحرية الكافية ليعلن ما يفكر به ، بل حسبها أنها وسّعت أمامه آفاق الاختبار والملاحظة ، فساعدته على أن يكون أصدق وأدق شاهد لعصره .

آثار الجاحظ

قلّما كتب أديب مقدار ما كتبه الجاحظ . فهو لم يدع باباً إلاّ ولجه ولا بحثاً إلا جال فيه . ولقد كان له من الثقافة الموسوعية ما جعله يكتب في كل فروع العلم والأدب والسياسة والدّين والفلسفة واللاهوت المعروفة في زمانه ، حتى زعم ابن الجوزي أن كتبه بلغت 360 كتاباً[1] . تناول فيها مواضيع شتى على غير وحدة في الجوهر أو تسلسل في المنطق . ففي كتاب «الحيوان» مثلاً ، وهو مبدئياً بحث علمي بحت ، تجد معظم آراء الجاحظ في مذاهب المعتزلة ، كما تجد طائفة من نقداته الاجتماعية . فبينا هو يعالج أمراً علمياً خطيراً تراه ينتقل فوراً إلى نادرة مضحكة ، أو إلى ملاحظة لا شأن لها البتة بالموضوع الأصيل . وأخاله كان يلجأ إلى هذه الطريقة الغريبة رغبة منه بتبديد الملل عن القرّاء وتشويقهم إلى متابعة فصوله . وقد قال دفاعاً عن نظريته هذه :

«إن كنّا قد أمللناك بالجدّ ، وبالاحتجاجات الصحيحة والمروجة ، لتكثر الخواطر ، وتشحذ العقول ، فإننا سننشطك ببعض البطالات ، وبذكر العلل الظريفة . . . لك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبيّن حجّة طريفة ، أو تعرّف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت في ضحك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت الجدّ» .

أمّا أهم الآثار التي تركها صاحبنا من كتب ورسائل وأبحاث فهي :

1 ـ كتاب الحيوان[2] (سبعة أجزاء) ، وهو بحث ضخم يتناول فيه المؤلف ،

---

(1) يقول المسعودي إنها 135 ويؤكد ياقوت إنها جاوزت الـ 180 .

(2) صدرت منه طبعة حديثة في القاهرة دققها عبد السلام هارون .

وهو يصف طبائع الحيوانات، شؤوناً لا علاقة لها أبداً بعنوان الكتاب. إنه موسوعة منوّعة تضمّنت بحوثاً في التعاليم الدينية، من اليهودية إلى المانوية، إلى الزرادشية، إلى النصرانية، إلى الإسلامية، إلى الإلحادية من دهرية ووثنية، بما في هذه الديانات والوثنيات من شيع ونزعات ومذاهب، كما تضمنت خواطر شخصية على هامش الحياة أو نوادر وفكاهات. أما الغاية الأولى من وضع هذا الكتاب فلعلها على الصعيد الديني تمجيد للخالق من خلال عجائب الكون وامتداح للإسلام في قوة شرائعه، بقدر ما هي، على الصعيد العلمي، نظرة شاملة في علم الحيوان وفروعه.

أما المراجع التي استند إليها الجاحظ فمن أهمها مباحث أرسطو وديموقريطوس وجالينوس وأبي عبيدة في الحقل العلمي. ويظهر أن كتاب «الحيوان» هو آخر ما صنّف بدليل أنه يذكر فيه سائر كتبه بما فيها «البخلاء».

كتاب البخلاء[1]

دراسة أدبية نقدية فكهة جمع فيها أبو عثمان أخبار البخلاء والمبخلين في عصره من أهل البصرة وخراسان بنوع خاص. وصوّر لنا نماذج حية ناطقة من أولئك الذين استهواهم الدرهم حتى العماية، فصاروا أضحوكة الناس ومدار تندرهم.

أمّا غايتُه من هذا الكتاب الطريف، الذي لم يفقد طراوته على الزمان، فهي على ما يبدو سردُ نوادر البخلاء واحتجاج الأشحّاء، وتفسيرُ قصدهم من تسمية البخل إصلاحاً والشحّ اقتصاداً، وبيان نواياهم من جعل الجود سَرَفاً والاثرة جهلاً. فكأنني بالمؤلف شاء أن يُظهر، بشكل تهكمي بارع، حقارة البخلاء ليعظّم سخاء العرب عن طريق مقارنة النقيضين.

(1) ترجمه إلى الفرنسية شارل بلاّ وصدرت منه مؤخراً طبعتان منقحتان في العربية واحدة في مصر (دققها طه الحاجري) والثانية في بيروت (دققها كرم البستاني).

من خلال صوَر البخلاء والأشحّاء يلقي الجاحظ في هذا الكتاب، أكثر منه في أي كتاب آخر، أضواء كشّافة على بيئة عصره في شتى نواحيها. فكتاب «البخلاء»، من هذا القبيل، مرجع وثيق لدراسة المجتمع العباسي إبّان ازدهار بغداد والبصرة وخراسان وخصوصاً من عهد الرشيد إلى عهد المتوكّل. ولا تقلّ قيمة الكتاب الأدبية عن قيمته التاريخية، فهو على وجه الإجمال[1] من أرشق آثار الجاحظ أسلوباً وأكثرها متعة.

البيان والتبيين

هو من أهم كتب الجاحظ، قال فيه ابن خلدون: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها، وفروع عنها»[2].

في هذا الكتاب يخلط الجاحظ، كعادته، بين علوم البلاغة والأدب واللغة والتاريخ والمنطق. وهو على كل حال مرجع أدبي وثيق. وكانت الغاية من وضعه الردّ على الشعوبية بتبيان تفوّق العرب في البلاغة.

رسالة التربيع والتدوير

هي رسالة وضعها الجاحظ في هجاء أحمد بن عبد الوهّاب وأفرغ فيها من سمّه بقدر كبير. ومما قاله في قذع بن عبد الوهّاب أنه يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب.

في هذه الرسالة الفريدة التي يتنادر بها أبو عثمان على مهجوّه يطرح عليه قصد تعجيزه ومعاياته مئة مسألة تناولت معظم المعضلات العلمية التي شغلت

(1) فيه إلى هذا بعض الابهام وبعض الكلام الغريب.

(2) المقدمة، صفحة 805.

مجتمع عصره من تاريخ ، إلى فلسفة ، إلى كيمياء ، إلى لاهوت ، إلى حيوان ، إلى نبات . . .

والمعضلات التي يذكرها الجاحظ في أسئلته المحرجة لا يحلها طبعاً في رسالة التربيع والتدوير القصيرة بل يحيل مناظره في كل مسألة إلى كتاب معين من كتبه . إنها تظهر مدى معارف الجاحظ الموسوعية ، بقدر ما تظهر لذعته التهكمية الجارحة .

سائر الرسائل

كتب أبو عثمان رسائل كثيرة ، إضافة إلى هذه الكتب ، في مواضيع شتى : منها في الفلسفة والدّين ، كرسالته في فضيلة المعتزلة أو الردّ على النصارى ، ومنها في السياسة ، كرسالته في مناقب الترك ، أو فخر السودان على البيضان ، أو العثمانية ، أو رسالة في بني أمية ، ومنها اجتماعية كالقيان والعشق والنساء ، ومنها أخلاقية ، كالحاسد والمحسود ، وذمّ الكتّاب ومنها علمية أو اقتصادية كرسالته في الخراج ورسالته في الكيمياء الخ . . .

وهناك رسائل كثيرة نسبت إلى الجاحظ ، لكن نسبتها تثير بعض الشك ، ككتاب التاج مثلاً . وكان من الشائع في ذلك الزمان أن ينسب كتاب ما إلى أديب معروف قصد ترويجه ، وقد لجأ الجاحظ نفسه إلى هذه الطريقة في أوّل عهده الكتابيّ .

أخلاق الجاحظ ونواياه

قال أبو عثمان : ما أخجلني أحد إلا امرأتان ، رأيت إحداهما في العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها :

فقلت لها : انزلي كلي معنا .

فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا !!

وأمّا الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت : لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي . فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له : مثل هذا ؟! وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إليّ بفصّ وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان ! فقلت لها : «يا ستي ما رأيت الشيطان» ؟! فأتت بك وقالت ما سمعت ؟!

لئن دلّت هذه النادرة على شيء فإنما تدلّ على ميل فطري إلى التهكم والسخرية ، فالجاحظ أحب التهكم للتهكم حتى ولو على نفسه . كان المرح من صميم طبيعته ، والنكتة على أسلة لسانه .

قد يكون مصدر هذه النكتة السامّة ، كما يبدو ، عقدة نفسية ولّدتها النقمة على قدر هزئ بصاحبها فجعله دميماً هزيلاً ، وضيع النسب ، بقدر ما عززتهاثورة على مجتمع ما قَدِر العلم قدره ، فرفع ذوي الغرور وأغضى عن حملة الثقافة ، وما كان المرح إلا مظهر كبرياء لدى أبي عثمان ، وقد أبى أن يرزح تحت عقدة نقصه مؤكداً قول المثل : كل ذي عاهة جبّار .

إلاّ أن الجاحظ ، إن حرمته الطبيعة شكلاً لائقاً ، فقد حبته عقلاً نيّراً وحسّاً

مرهفاً، فكان سريع الاقتباس حادّ الذهن، دقيق الملاحظة، يتنبه لأقل شيء فيصوره تصويراً بارزاً. وكان إلى ذلك دؤوباً فما عزم على أمر إلاّ أتاه.

أما العوامل التي صرفته إلى الكتابة فكثيرة ومتنوعة: منها، طبعاً، نزعة غريزية إلى مظاهر العقل، ومنها تمرد على أوضاع اجتماعية رآها مجحفة، ومنها ثورة على جهل مقيم سلط الخرافة والسخافة على المنطق والحقيقة، ومنها نزوع جامح إلى الربح المادي ليتوفر له العيش المرفه وبسط الجاه والقدح بالغير عن أيسر سبيل.

ما هو المجتمع الذي وصفه الجاحظ

عاش الجاحظ، كما رأينا، في النصف الأخير من القرن الهجري الثاني، وفي النصف الأول من القرن الثالث، أي في ذروة الخلافة العباسية. وقد امتد سلطان أصحابها حتى إلى بلاد الهند، فجعلوا من بغداد، القرية الصغيرة الحالمة على ضفاف دجلة، عاصمة تزهو بقصور شامخة قامت على أنقاض صروح كسرى.

نفوذ الأعاجم

عمّ الترف في مدينة الرشيد نتيجة للبحبوحة الاقتصادية، واتّبع الخلفاء الطريقة الفارسية في العيش والحكم والهندسة، فإذا موائدهم تُعدّ على أفخر ما كانت تُعدّ عليه موائد أسياد فارس، وإذا مجالسهم تُفرش وتُزيّن على طِراز مجالسهم، وإذا دواوينهم تغصّ بالوزراء. والمستشارين والكتّاب والحجّاب على أحسن ما عرفه كسرى أنوشروان.

إن الحذر من ردّة فعل الأمويين وأنصارهم دفع بني العباس إلى الاعتماد على الفرس أولاً، ثم على الأتراك في شؤونهم الخطيرة، فكان البرامكة أهم وزرائهم، وكان الخراسانيون والترك نواة جيشهم، فقويت شوكة الأعاجم وتغللت الشعوبية في كل حقل.

الحرية الفكرية

كان لهذا الاختلاط المستمر بين الشعوب أثره الحاسم في خلق جو من الحرية الفكرية رحيب. فبعد أن كان هارون الرشيد، على سعة صدره، قد حرّم الجدال

في أمور الدِّين، وهدّد بمعاقبة أهل علم الكلام، جاء المأمون فأطلق القول[1] وقرّب رجال العلم والأدب والفن. كان هو نفسه يحاجّ الفقهاء في مجلسه ويسلّم بآرائهم إذا اقتنع بها. وقد أشار أبو عثمان إلى هذه النعمة الإنسانية عندما قال يستحث قرائح الكتّاب من معاصريه[2]:

«وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا، على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر ممّا وجدنا، فما ينتظر العالِم بإظهار ما عنده؟ وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه؟ وقد أمكن القول، وصلح الدهر، وخوى نجم التقية، وهبت ريح العلماء، وكسد العي والجهل، وقامت سوق البيان والعلم».

الثقافة

منذ عهد المنصور بدئ نقل بعض الآثار الفكرية اليونانية إلى العربية. وبلغت حركة الترجمة أوجها في عصر المأمون. وقد أنشأ هذه الخليفة، صديق الفكر والمفكرين، بيت الحكمة في بغداد، وجعل له مكتبة ومرصداً. إلا أن نقل بعض وجوه التراث اليوناني إلى العربية لم يجرِ، لا رأساً، ولا بدقّة، بل عن طريق السريانية[3] وبتصرف. ومن هنا كان التشويش في المعنى، بل التناقض أحياناً بين الأصل والمنقول[4].

وقد أثارت الفلسفة اليونانية رغبة الناس في استقصاء الحقيقة والاستفاضة في العلوم، فوُضعت الكتب في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب، وأخذت تتقلّص الخرافات والأساطير الكثيرة الشائعة والمسيطرة على الأذهان.

---

(1) إلا أن إطلاقه القول لم يمنعه من وضع «المحنة»، وهي أفظع عقاب عرفه الإسلام. وكان المأمون يفرضه على مخالفي رأيه في الاعتزال.

(2) كتاب الحيوان، صفحة 43.

(3) كان أشهر المترجمين من آل بختيشوع وآل حنين وآل نوبخت.

(4) أهم المدارس التي نقلت إلى السريانية كانت في جنديسابور والرها وحرّان.

لم تقتصر الترجمة على التراث اليوناني وحده، بل شملت الثقافات الهندية والفارسية والرومانية وسائر الثقافات المعروفة في ذلك العهد، فانفسح أمام الكاتب العربي مجال رحب للتثقف قبل النتاج، وكان من قبل يصرف جلّ اهتمامه إلى النحو واللغة والبيان والإرشاد.

كان من الطبيعي أن تؤثر الفلسفة اليونانية، القائمة على المنطق والتحليل، في توجيه الفقهاء نحو إعادة النظر في الشؤون الدينية على ضوء العقل السليم.

المعتزلة

من ثمار تحكيم العقل في قضايا الدّين كانت المعتزلة[1]. وهي طائفة تقول بقدم الله، وتنفي الصفات القديمة أصلاً، وتحدد الله بأنه عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته لا بعلم وقدرة وحياة[2]، واتفق أصحابها على أن كلام الله محدث مخلوق في محل، وهو حرف وصوت وعلى أن الإنسان قادر، خالق لأفعاله ومسؤول عنها.

والمعتزلة طبقات ولكل منها، في نظر الجاحظ، شأن خطير. وقد قال عنهم: «لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل».

غير أن أبا عثمان أن اتفق مع سائر طبقات المعتزلة، في شؤون كثيرة، فقد انفرد بعدة أمور: منها قوله أن المعارف كلها ضرورة طباع وليس للعباد كسب سوى الإرادة ومنها إنكاره كون الإرادة جنساً من الأعراض[3].

وقد انتشرت المعتزلة انتشاراً كاسحاً أيام خلافة المأمون حتى غدت المذهب الرسمي واستمرت كذلك إلى أن جاء المتوكل فضربها ضربة عنيفة.

---

(1) ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري حول حلقة الحسن البصري على يد واصل بن عطاء.

(2) الملل والنحل للشهرستاني، صفحة 55.

(3) الملل والنحل، صفحة 94.

أهل الكتاب

كان لأهل الكتاب، ولا سيما النصارى، حرمة خاصة عند المسلمين. وأحسب أن هذا مردّه للمُلك الذي قام للمسيحيين قبل الإسلام، ولحسن الجوار فيما بينهم. وفي هذا قال أبو عثمان: «جاء الإسلام وملوك العرب رجلان: غساني ولخمي وهما نصرانيان، وقد كانت العرب تدين لهما وتؤدي الإتاوة إليهما[1]. وكان النصارى لبعد ديارهم من مبعث النبي ﷺ ومهاجره، لا يتكلّفون طعناً، ولا يثيرون كيداً، ولا يُجمعون على حرب، فكان هذا أول أسباب ما غلّظ القلوب على اليهود وليّنها على النصارى»[2].

وبفضل هذه الحرمة تمكّن النصارى من تولّي المناصب الخطيرة في الدولة العباسية في عهد المأمون. لكن نفوذهم بلغ من الاتساع حدّاً أصبح معه يتهدد الإسلام، فكانت من المتوكل انتفاضة عنيفة هيأ الجاحظ لها الطريق برسالته الشهيرة «الرد على النصارى».

وفي جو التساهل الدّيني ذاك استفاضت الزندقة[3] وتعددت الفرق. إلا أن الزنادقة ما نجَوا من العقاب فتشرّد بعضهم، وقُتل بعضهم، وتاب الآخرون. وقد اتهم الجاحظ أهل الكتاب بإثارة هذه الزندقة في صفوف المسلمين.

البيئة الاجتماعية

أما البيئة الاجتماعية في ذلك العصر فكان أبرز ما يميزها اختلاط الشعوب وتعدد العناصر. وقد أدّى الاستقرار السياسي إلى الازدهار الاقتصادي الذي ولّد بدوره حب البذخ والجشع، فشاع اللهو، على أنواعه، من معاقرة الخمور

(1) على هامش الكامل للمبرد، ج2، صفحة 162.

(2) على هامش الكامل، ج2، صفحة 170.

(3) كانت كلمة زنديق تعني في البدء للمسلم كل من اعتنق المذاهب الفارسية، ثم أصبحت تعني كل مفكر حر خطر على سلامة الإسلام.

إلى الرقص والغناء، إلى اللعب واللهو، إلى التنعم بالفنون والجمال، إلى مخالطة الجواري الحسان. ونشأ عن كل هذا فتور في ممارسة موجبات الدِّين وانحلال في الأخلاق واستهتار في الشؤون العامة. إنها النتيجة الحتمية لليسر في الأمم وقد وصلت إليها كل الدول في ذروة مجدها.

ومهما يكن من أمر فقد كان العهد العباسي، ولا سيما عصر المأمون، العهد الذهبي الأكيد للحضارة العربية. لقد صهرت حقّاً هذه الحضارة في بوتقتها خُلاصة الحضارات العريقة ووسمتها بطابع مميّز.

المجتمع العبّاسي كما رآه الجاحظ

نظر الجاحظ إلى المجتمع نظرة ثائر على وضعه الإنساني، ومعتزلي مُفعم «بأصول» مذهبه، ومدافع حازم عن أسياده الخلفاء، وأديب توخى التوجيه والنقد بقدر ما توخى الوصف المجرّد والترويح عن النفس.

ما قصد قطّ أن يُصلح مجتمع عصره ذهاباً من المؤسسات والقوانين، ولا أن يدرس الظاهرات الاجتماعية ليستخرج منها مذهباً اجتماعياً معيناً، بل كنقّادة شديد الفراسة سليم الذوق، كان جلّ همّه أن يسرّح أنظاره الفاحصة في كل وسط وكل مضمار.

لقد شاء أن يلبّي حاجةً فنية في نفسه، فوصف معاصريه كما رآهم أو كما توضحوا له، بقدر ما شاء أن يهزأ بعيوبهم رغبةً منه في إثارة الضحك. رام أن يرشد الناس، بشيء من الخبث، إلى ما يؤدي إليه انحرافهم من الاحتقار، وأن يروي حقده المكبوت، ذلك الحقد الذي يكنّه ابن الشعب الكادح لمستثمريه، وأن يخدم فكرة دينية أو سياسية عزيزة عليه قد تجر عليه مغنماً وجاهاً. إلا أنّ كل هذا لا ينفي أن تكون له نظرات سديدة نثرها في مجموعة آثاره حول إصلاح المجتمع وعلم الاجتماع بوجه عام.

إن نظرنا، من هذه الزاوية، إلى نقد الجاحظ الاجتماعي، بدت لنا وجوه مميزة عدّة، لكنها تتكامل تكاملاً يجعل تقسيمها مصطنعاً، ومع هذا، سنحاول أن ندرس هذه الوجوه في حقول ثلاثة منفردة:

1 ـ الحقل الأخلاقي.

2 ـ الحقل الديني السياسي.

3 ـ الحقل الاجتماعي المجرد.

الحقل الأخلاقي

في غمرة البحبوحة المالية التي نعم بها العراق في العصر العباسي انتشر اللهو فاشتدّت الرغبة إلى كسب المال، الوسيلة التي تؤمن لهذا اللهو أسبابه، فانقسم الناس فئتين: فئة المحظوظين، وهم أهل البلاط والحاشية والأمراء والوزراء والأتباع، وكانوا في بذخ مقيم لطالما تجاوز المعقول[1]، وفئة المحرومين الذين رتعوا في بؤسهم يئنون من جور مستثمريهم ولا يجرؤون حتى على التذمر.

المستثمرون

في مجتمع للدرهم شأنه في وزن القيم، كان من الطبيعي أن يؤدي التهافت على المال إلى أقبح الوسائل: من مخاتلة، إلى خيانة، إلى تزلف، إلى كذب، إلى غدر، إلى وشاية أو نميمة، وإلى كل صغاره تنحط بمستوى الإنسان.

في هذا الصدد ذكر الجاحظ أن حكّام المناطق كانوا يفيدون من سلطانهم ليفرضوا الهدايا على الرعية بانتظام، وإن الموظفين كانوا يسيئون استعمال وظيفتهم بدافع الجشع إلى المال، وإن الأوصياء ما كانوا ليرتدعوا عن نهب ثروة القصر، بينما المفروض أن يحرصوا عليها من نهب الغير، فصحّ فيهم قول المثل السائر: «حاميها حراميها». حتى القضاة كانوا يسخّرون العدالة لأهوائهم ومطامعهم. وقال الجاحظ في هذا على لسان والد يوصي، عند موته، ابنه بالحرص على ميراثه[2]:

---

(1) كما عند البرامكة مثلاً.

(2) البخلاء، صفحة 58-59.

«إنّ هذا المال لم أجمعه من القصص والتكدية، ومن احتيال النهار ومكابدة الليل. ولا يجمع مثله أبداً إلا من معاناة ركوب البحر.

«إني قد لابست السلاطين والمساكين، وخدمت الخلفاء والمكدّين، وخالطت النسّاك والفتّاك، وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر، وحلبت الدهر أشطره، وصادفت دهراً كثير الأعاجيب. فلولا أني دخلت من كل باب، وجريت مع كل ريح، وعرفت السرّاء والضرّاء، حتى مثّلت لي التجارب عواقب الأمور، وقربتني من غوامض التدبير، لما أمكنني جمع ما أُخلّفه لك، ولا حفظ ما حبسته عليك. ولم أحمد نفسي على جمعه، كما حمدتها على حفظه، لأن بعض هذا المال لم أنله بالحزم والكيس. قد حفظته عليك من فتنة البناء، ومن فتنة النساء، ومن فتنة الثناء، ومن فتنة الرياء، ومن أيدي الوكلاء فإنهم الداء العياء.

«ولست أُوصيك بحفظه لفضل حبّي لك، ولكن بفضل بغضي للقاضي. إن الله، جلّ ذكره، لم يسلّط القضاة على أموال الأولاد إلا عقوبة للأولاد، لأن أباه إن كان غنيّاً قادراً أحبّ أن يريه غناه وقدرته، وإن كان فقيراً عاجزاً أحبّ أن يستريح من مداراته. فلا هم شكروا من جمع لهم وكفاهم ووقاهم وغرسهم، ولا هم صبروا على من أوجب له حقّه عليهم. والحقّ لا يوصف عاجله بالحلاوة، كما لا يوصف عاجل الباطل بالمرارة. فإن كنت منهم فالقاضي لك، وإن لم تكن منهم فالله لك. فإن سلكت سبيلي صار مال غيرك وديعة عندك، وصرت الحافظ على غيرك. وإن خالفت سبيلي صار مالك وديعة عند غيرك، وصار غيرك الحافظ عليك. وإنك يوم تطمع أن تضيع مالك ويحفظه غيرك، لجشع الطمع مخذول الأمل. احتال الآباء في حبس الأموال على أولادهم بالوقف، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستبحاث. ما أسرعهم إلى إطلاق الحجر، وإلى إيناس الرشد، إذا أرادوا الشراء منهم. وأبطأهم عنهم إذا أرادوا أن تكون أموالهم جائزة لصنائعهم».

كان من البديهي أن يثير هذا الجشع إلى المال في الطبقة الميسورة نزوعاً إليه في سائر الطبقات، ولكن على نطاق أضيق، فنشأت طائفة «شعبية» من المستثمرين مؤلفة من المتسولين واللصوص والمشعوذين تفيد من سذاجة بعض الناس ولا تُحجم حتى عن الاستعانة بالمقدسات واستباحتها لأجل تحصيل الدرهم. وقد وصف الجاحظ بعض نماذج منهم وبيّن طرق خداعهم منبّهاً إلى ألاعيبهم وشرّهم. فإذا المخطراني هو من يأتي في زي ناسك ويدّعي أن بابك[1] قد قطع لسانه ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب، فلا ترى له لساناً البتة. ولا بدّ لهذا المخطراني أن يكون معه واحد يعبّر عنه، أو لوح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته. وبهذه الحيلة البارعة يستثير شفقة البسطاء فيبتزّ مالهم.

أما الكاغاني فهو من يتصنع الجنون. وأما القرسي فهو من يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً، ويبيت على ذلك ليلة، فإذا تورّم واختنق الدم، مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين (نبات أحمر) وقطر عليه شيئاً من سمن، وأطبق عليه خرقة أو كشف بعضه فلا يشك من رآه أن به الأكلة أو ما يشبه الأكلة، فيرق قلبه عليه ويعطيه بعض الدراهم.

وأما العوّاء، فهو الذي يسأل بين المغرب والعشاء. وربما طرّب، إن كان له صوت حسن. وأما الاسطيل فهو المتعامي الذي إن شاء أراك أنه منخسف العينين، وإن شاء أراك أن بهما ماءً، وإن شاء أراك أنه لا يُبصر. وأما المزيد فهو الذي يدور ومعه الدريهمات ويقول: هذه دراهم قد جُمعت لي في ثمن قطيفة، فزيدوني فيها رحمكم الله. وربما احتمل صبياً على أنه لقيط. وربما طلب في الكفن[2].

ويستفيض الجاحظ في وصف حيل أولئك المكدين ويبرع في تصوير ظاهرهم

---

(1) زعيم إحدى الفرق الإسلامية.

(2) البخلاء، صفحة 65.

وتحليل مقاصدهم، ولا غرو فهو من طبقة لا تزيد عن طبقتهم من حيث اليسر المادي والحسب والنسب. وقد حذّر خصوصاً من شرّ الشعراء والخطباء الدجّالين إذ قال:

«ما ظنُّك بالشعراء والخطباء الذي إنما تعلّموا المنطق لصناعة التكسّب؟ وهؤلاء قوم بودّهم أن أرباب الأموال قد جازوا حدّ السلامة إلى الغفلة، حتى لا يكون للأموال حارس، ولا دونها مانع! فاحذرهم، ولا تنظر إلى بزّة أحدهم، فإن المسكين أقنع منه، ولا تنظر إلى موكبه، فإن السائل أعفّ منه. واعلم أنه في مسك مسكين، وإن كان في ثياب جياد، وروحه روح نزل، وإن كان في جرم ملك، وكلهم، وإن اختلفت وجوه مسئلتهم، واختلفت أقدار مطالبهم، فهو مسكين. إلا إن واحداً يطلب العلق، وآخر يطلب الخرق، وآخر يطلب الدّوانيق، وآخر يطلب الألوف. فجهة هذا هي جهة هذا، وطعمة هذا هي طعمة هذا، وإنما يختلفون في أقدار ما يطلبون، على قدر الحذق والسبب. فاحذر رقاهم، وما نصبوا لك من الشرك، واحرس نعمتك وما دسّوا لها من الدواهي، واعمل على أن سحرهم يسترق الذهن، ويختطف البصر. قال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً»».

لقد عزّ عليه حقّاً أن يمتهن زملاء له في الأدب رسالتهم ويهبطوا فيها إلى مستوى الكدية والنصب.

البخلاء

بيد أن براعة الجاحظ في وصف المتسولين ليست بشيء يذكر إذا قيست ببراعته في وصف البخلاء. فإن له في تصوير عبيد الدرهم هؤلاء، وفي فضح أساليبهم شغفاً خاصاً. فعدا الحقد الشخصي الذي يُضمره المُعدم عادة للنفوس القذرة المُولعة بالكسب، على حرمانه، أجّجت ثورته على البخل والبخلاء عوامل سياسية خطيرة. ففي حملته على الشعوبية مثلاً كان لا بدّ له أن يمتدح جود العرب ويُظهر بخل الموالي. وهل ثمة إهانة، في نظر العربي، أقبح من البخل.

وهل أسمى عنده من الكرم وحسن الضيافة! أو لم يذكر عن النبي ﷺ أنه لم يضع درهماً على درهم ولا لبنة على لبنة، وملك جزيرة العرب فقبض الصدقات، وجُبيت له الأموال ثم تُوفي وعليه دين ودرعه مرهونة. وكان إلى هذا إذا سُئل أعطى وإذا وعد أنجز[1].

وفي نقد البخلاء لم يكتفِ الجاحظ بنظرة عابرة، بل كرّس كتاباً كاملاً من أشهر كتبه وأوفرها انسجاماً، فجمع أخبارهم، وأظهر حركاتهم، وحلّل انفعالاتهم، وكشف نفسياتهم فكأنها أمامنا كتاب مفتوح.

وها هي بعض أمثلة، على طريقته الساخرة المرحة في تصوير البخلاء والمبخلين: «يقول المروزيّ[2] للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جلوسه: تغديت اليوم؟ فإن قال نعم، قال: لولا أنك تغدّيت لغدّيتك بغداء طيب، وإن قال، لا، قال: لو كنت تغدّيت لسقيتك خمسة أقداح، فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير».

«وكنت في منزل ابن أبي كريمة، وأصله من مرو، فرآني أتوضأ من كوز خزف، فقال: سبحان الله! تتوضأ بالعذب، والبئر لك معرضة؟ قلت: ليس بعذب، إنما هو من ماء البئر. قال: فتفسد علينا كوزنا بالملوحة. فلم أدرِ كيف أتخلص منه»[3].

«وقال ثمامة[4]: لم أرَ الديك في بلدة قطّ إلا وهو لافظ، يأخذ الحبّة بمنقاره، ثم يلفظها قدّام الدجاجة، إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحبّ. قال: فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء، فمن ثم عمّ جميع حيوانهم.

---

(1) البخلاء، صفحة 187.

(2) نسبة إلى مرو وهي مدينة كبيرة من خراسان (فارس).

(3) البخلاء، صفحة 23.

(4) ثمامة بن الشرس، أحد زعماء المعتزلة.

«حدّثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد، فقال: كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبيّ له صغير يلعب بين يديه، فقلت له، إمّا عابثاً وإمّا ممتحناً: أطعمني من خبزكم. قال: لا تريده، هو مر. فقلت: فاسقني من مائكم. قال: لا تريده، هو مالح. قلت: هات لي من كذا وكذا قال: لا تريده، هو كذا وكذا. إلى أن عددت أصنافاً كثيرة، كل ذلك يمنعنيه ويُبغّضه إليّ. فضحك أبوه وقال: ما ذنبنا؟ هذا من علّمه ما تسمع؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم»[1].

ويحلو للجاحظ أن يتوقف عند رأيه هذا وهو أن البخل طبع في بعضهم لا وليد حاجة وإلا لكان اقتصر على الفقراء ولما شاع، كما شاع في زمنه، بين الموسرين، فيقول: «فإنك قد تجد المَلِك بخيلاً ومملكته أوسع وخرجه أدرّ وعدوّه أسكن، وتجد أحزم منه جواداً، وإن كانت مملكته أضيق وخرجه أقلّ وعدوّه أشدّ حركة»[2].

ولا يقف صاحبنا عند سرد نوادر البخلاء وتعداد طرقهم وفضح تصنعهم، وكشف مواطنهم، بل يرينا عنهم صورة حسية، تكاد تُلمس فها أحدهم، وقد ابتلي بضيوف حاول عبثاً أن يتملص منهم، يسعى محموماً لتهوين مصابه بتخفيف وجبة مأكلهم إلى أقصى ما يستطيع، «فإذا وضعوا الطعام، أقبل على أشدّهم حياء، أو على أشدّهم أكلاً، فسأله عن حديث حسن أو عن خبر طويل، ولا يسأله إلاّ عن حديث يحتاج فيه إلى الإشارة باليد أو الرأس، كل ذلك ليشغله. فإذا هم أكلوا صدراً أظهر الفتور والتشاغل والتنقر كالشبعان الممتلئ.. وهو في ذلك غير رافع يده، ولا قاطع أكله. إنما هو النتّف بعد النتف، وتعليق اليد في خلل ذلك. فلا بدّ من أن ينقبض بعضهم ويرفع يده، وربما شمل ذلك جماعتهم. فإذا علم أنه قد أحرزهم واحتال لهم، حتى يقلعهم من مواضعهم من حول الخوان، ويعيدهم إلى مواضعهم من مجالسهم، ابتدأ الأكل، فأكل أكل الجائع

---

(1) البخلاء، صفحة 24.

(2) البخلاء، صفحة 189.

المقرور وقال: إنما الأكل تارات والشرب تارات»[1].

إنه الوله الأعمى بالدرهم يسيطر على صاحبه سيطرة مستبدة تجعله يستوحيه في أعماله وأفكاره وحتى في أحلامه. ومن خلال بخلاء مجتمعه في البصرة أو في خراسان، نفذ الجاحظ إلى نفسية بخيل كل عصر ومصر ورسم عنه صورة تتحدى في طرافتها الزمان.

القيان

من مظاهر اليسر المادي والاستقرار السياسي في العراق كان الانصراف إلى اللذات عن كل طريق، فشاع التسري وكثرت حلقات الغناء ومجالس الشراب، وازدهرت تجارة الرقيق. وقد لعبت القيان دوراً خطيراً في ذلك المحيط. والقيان، في الأصل، جواري أتينَ من كل بلد حتى ملأن أسواق بغداد والبصرة، وأسهمن في نشر الميل إلى الأدب والفنون الجميلة لأنهنّ يُجِدن الغناء وأصول اللغة والشعر، ناهيك بحسنهن البارز في أكثر الأحيان. ويذكر الجاحظ أن الخليفة المأمون ابتاع إحدى القيان، واسمها سكّر بعشرة آلاف درهم[2]. وقد وضع أبو عثمان رسالة خاصة في الجواري المغنيات واصفاً وسائل الإغراء التي كُنّ يلجأن إليها ومحذراً من عواقب الاستسلام إلى مكرهن.

«كيف تسلم القينة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة. وإنما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ. وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأخابيث، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جدّ، ولا يرجع إلى فقه ولا دِين، ولا صيانة مروءة، وتروي الحاذقة منهنّ أربعة آلاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من

(1) البخلاء، صفحة 118.

(2) ثلاث رسائل لفنكل، صفحة 61.

الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب عن عقاب، ولا ترغيب في ثواب، وإنما بُنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة، والعشق والصبوة، والشوق والغلمة، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها، منكبة عليها، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كلّه تجميش، وإنشادهم مراودة، وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها، لأنها إن جَفَتها تفلتت، وإن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منها وقفت، وكل واقف فإلى نقصان أقرب، وإنما فرق ما بين أصحاب الصناعات، وبين من لا يحسنها، التزيّد فيها، والمواظبة عليها، فهي لو أرادت الهدي لم تعرفه، ولو بغت العفة لم تقدر عليها».

لكن أبا عثمان، وقد عرف المجون واستعذبه، لا يلبث أن يرفع التبعة عن القيان لأنهن بحكم جوّهن الخاص، البعيد عن كل نفحة دينية أو تربية أخلاقية، مسوقات حتماً إلى مثل هذا المصير.

الغناء والخمر

أما الغناء فيرى الجاحظ فيه متعة فنية أوّلاً وآخراً، لا سيما عندما تكون المقطوعة المغنّاة شعراً شجيّ الوقع، صادق النبرة. فهو إذ يتناول عرضاً هذا الفن ينافح عنه ويدحض كل ذريعة لتحريمه. ولماذا يحرّمونه ـ يقول أبو عثمان ـ ألأنه يُلهي عن الصلاة، فلماذا لا يمنعون إذن الأحاديث والمشارب والمآكل والصيد والنزهة والزواج كذلك وكلها يلهي عن الصلاة!...

لكن الجاحظ إن استطاع أن يدافع عن الغناء ويحاجّ خصومه بشدّة، فإنه كان أخفض صوتاً بصدد الخمور. والخمر، كما هو معلوم، يحرّمه الإسلام، فكان يتعاطاه المسلمون في البدء سرّاً ثم علناً. وقد خصّ الجاحظ الخمر والنبيذ بأكثر من رسالة وصف فيها أنواع الخمور وخصائصها وبين ما هو المحرّم منها، وما هو المُباح، وحذّر من الإفراط في السكر لأن السكّير يفقد وعيه ويُقدم على أفظع المحرّمات.

الحقل الديني السياسي

ما كنا لنعنى بالناحية الدينية لو أن الشؤون الاجتماعية والدينية في الإسلام ما تداخلت تداخلاً جعل الفصل بينها مستحيلاً. فالقرآن ليس للمسلمين الكتاب المقدّس وحسب، أي أساس حياتهم الدينية، بل هو أيضاً المصدر النظري لكل سلطة سياسية ومبدأ كل إدارة اجتماعية.

ونظراً للمفهوم «التيوقراطي»[1] للمجتمع الإسلامي كان للشريعة أن تدبّر علاقات الشعب وأسباب حياتهم. وما كان الجاحظ، المجاهد المعتزلي، إلا ليعكس في آثاره هذا الوجه الاجتماعي، فإذا الشعور الديني يخالط الكثير من أعماله ويوحي إليه معظم آثاره.

كانت حملته النقدية الموجهة ضد خصوم الإسلام تخدم في آن واحد مذهبه الاعتزالي وأسياده العباسيين. وكان هؤلاء الخصوم قسمي: فئة الكفّار، وهي تشمل الأقليات الدينية والدهرية، وفئة الفرق الإسلامية المناوئة.

الأقليات الدينية والدهرية

أمّا الأقليات الدينية فكانت تتألف خصوصاً من النصارى واليهود والزرادشة والمانويين، وكانت تلعب دوراً خطيراً في شؤون الإدارة وفي سائر الأعمال والعلوم. وقد روى الجاحظ على لسان طبيب يُدعى أسد بن جاني أسباب فشل هذا في الطبابة قال:

---

(1) مجتمع تُعتبر السلطة فيه منبثقة من الله.

سأله سائل: «السنة وبئة والأمراض فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤتى في هذا الكساد؟ قال: أما واحدة فإني عندهم مسلم، وقد أعتقد القوم قبل أن أتطبّب، لا بل أن أخلق، أن المسلمين لا يفلحون في الطبّ. واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبا وجبرائيل ويوحنا وبيرا. وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى، وأبو زكريا»[1].

وهذا التذمر إن دلّ على شيء فإنما يدل على منزلة الأقليات الدينية، ولا سيما النصارى، في حقل الطب ذلك العهد.

أمّا الدهرية، وأتباعها ملحدون أصلاً، فكان وضعها غير معترف به قانوناً. ورغم هذا كان لها نفوذ على عامة المسلمين.

ورغبة في نشر الإسلام وتوطيد دعائمه، دأب الجاحظ، إرضاءً لبعض أوليائه، في درس مختلف الأقليات الدينية والدهرية داحضاً حججهم ومبرّراً أسباب نفوذهم العابر.

بالنسبة للحظوة الكبيرة التي كانت تنعم بها هذه الأقليات، ولا سيما النصارى، كان المسلمون يخشون خطر تعاليمها خصوصاً عندما أُطلقت حرية القول في زمن المأمون. وقد بلغ الخوف بالمتوكل حداً، سنة 835 (636هـ)، جعله يزيد من صرامة القوانين بحقها كمنعها مثلاً من ركوب الخيل، أو حمل السلاح، أو بناء المعابد الجديدة. وتبريراً لهذا التصرف كلّف الخليفة العباسي وزيره الفتح ابن خاقان أن يُثير، بواسطة الجاحظ، موجةً من الحقد عليها فكتب أبو عثمان رسالته «الرد على النصارى» يحمل فيها على أهل الكتاب «المُشبهة المُشركين».

في هذه الرسالة الصارمة حاول الجاحظ أن يدحض حجج النصارى ويبرهن على أن الوحي الإلهي نزل جزئياً على اليهود والمسيحيين فشوّهوه ثم جاء نبي الإسلام يعيد له حرمته ويصونه. ثم يمضي في تعداد الأسباب التي جعلت لأهل الكتاب، بوجه عام، وللنصارى، بوجه خاص، تلك الحرمة الفريدة فتميزوا في

(1) البخلاء، صفحة 121.

مراكبهم وملابسهم وصناعتهم[1] :

«اتخذوا البراذين الشهرية ، والخيل العتاق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصوالجة وتحدقوا المديني ، ولبسوا الملحم والمطبقة ، واتخذوا الشاكرية ، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي واكتنوا بذلك أجمع . . . فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير ، وعقدها آخرون دون ثيابهم ، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وانفوا ، مع اقتدارهم من دفعها ، وسبّوا مَن سبّهم ، وضربوا مَن ضربهم ، وما لا يفعلون ذلك وأكثر منه» .

أمّا شرّ هؤلاء الذي خشيه العباسيون وعبّر عنه الجاحظ فهو أنهم كانوا «يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالإسناد من روايتنا ، والمتشابه من آي كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك رُبما تبرأوا إلى علمائنا ، وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد ، وبعد فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجّموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجّاننا وأحداثنا شيء من كتب المانية والديصانية والمرقوبية والفلانية ، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ، مخبّأة في أيدي ورثتها ، فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قولهم كان أولها»[2] .

الثنائية

وما كان العباسيون كذلك ينظرون بعين الرضى إلى نشاط أتباع زرداشت وماني اللذين ينسبان الخلق إلى مبدأين متناقضين ، مبدأ الخير ومبدأ الشر ، لذلك

---

(1) على هامش الكامل ، 1702 .

(2) على هامش الكامل ، 1742 .

وجب على الجاحظ أن يشهر قلمه منددا محقراً على غير هوادة: «ويزعم زرادشت، وهو مذهب المجوس، أن الفأرة من خلق الله، وأن السنور من خلق الشيطان، وهو إبليس، وهو اهرمن، فإذا قيل له: كيف تقول ذلك، والفأرة مفسدة، تجذب فتيلة المصباح، فتحرق بذلك البيت، والقبائل الكثيرة، والمدن العظام، والأرباض الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال وتقرض دفاتر العلم، وكتب الله، ودقائق الحساب والصكاك والشروط، وتقرض الثياب، وربما طلبت القطن لتأكل بذره، فتدع اللحاف غربالاً، وتقرض الجرب، وأوكية الاسقية، والازقاق، والقرب فتخرج جميع ما فيها، وتقع في الآنية وفي البئر، فتموت فيه، وتحوج الناس إلى مؤن عظام، وربما عضت رجل النائم، وربما قتلت الإنسان بعضتها. والفأر بخراسان ربما قطعت أذن الرجل، وجرذان إنطاكية تعجز عنها السنانير، وقد جلا عنها قوم، وكرهها آخرون، لمكان جرذانها، وهي التي فجرت المسنّاة حتى كان ذلك سبب الحسر بأرض سبا، وهي المضروب بها المثل، وسيل العرم مما تؤرّخ بزمانه العرب، والعرم المسنّاة، وإنما كان جرذاً، وتقتل النخل والفسيل، وتخرب الضيعة، وتأتي على أزمة الركاب والخطم، وغير ذلك من الأموال. والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفأر، فكيف صار خلق الضار المفسد من الله، وخلق النافع من خلق الشيطان؟ والسنور يعدي به على كل شيء خلقه الشيطان، من الحيات والعقارب، والجعلان وبنات وردان، والفأرة لا نفع لها، ومؤنها عظيمة؟ فقال: لأن السنور لو بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة! فهل سمعت بحجة قط، أو بحيلة، أو بأضحوكة، أو بكلام، ظهر على تلقيح هرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال؟ فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم»[1].

أمّا أتباع المانوية فيرى فيهم الجاحظ أناساً جهلوا الأسباب والمعاني وقصروا عن تأمّل الصواب فخرجوا إلى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء.

(1) كتاب الحيوان، ج4، صفحة 99.

«وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء، وفرشت أحسن فرش، وأعدّ فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب، ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير، فجعلوا يسعون فيه محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أعدّ فيها، وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع في موضعه وأعد لشأنه، وهو جاهل بالمعنى فيه، فتذمر وتسخّط وذمّ الدار وبانيها».

الدهرية

كان يُعرف بالدهريين أولئك الذين كانوا لا يعتقدون لا بالله الأحد، ولا بالخلق، ولا بالعناية الإلهية، ويشجبون كلّ تعاليم الأديان بما فيها العقاب والثواب في الآخرة ويؤمنون بأزلية الزمان والمادة. ويذكر أبو عثمان في سياق تعريف الدهري أنه والبهيمة سيّان، ليس القبيح عنده إلاّ ما خالف هواه، وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك، وعلى اللذة والألم، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة، وإن قتل ألف إنسان صالح لنيل الدرهم[1].

* * *

في حملته هذه على الأقليات الدينية والدهرية ما خدم الجاحظ القضية العباسية وحسب، بل خدم أيضاً وخصوصاً عقيدته المعتزلية، وقد نصّ أحدُ أصولها الخمسة، أصل التوحيد، على مناوئة أنصار الثانوية (زرادشة ومانويين) والمشبهة[2] (نصارى ويهود) ونفاة وجود الله (الدهرية)، فأصاب هدفين برمية واحدة.

(1) كتاب الحيوان، ج7، صفحة 6.

(2) الذين يشبهون العباد بالخالق ويرون فيهم صورة له.

الفرق الإسلامية

إن المبدأ عينه الذي حمل المعتزلة على محاربة سائر الأديان حملهم أيضاً على مكافحة الفرق والأحزاب الإسلامية الأخرى. وكان الجاحظ الداعية الأول في هذا السبيل، لا سيما أن مصلحة العباسيين كانت تقضي بذلك. وبين هذه الفرق والشيع والأحزاب انتقد الجاحظ خصوصاً الحشوية والرافضة والأمويين والشعوبيين.

الحشوية والنابتة

كان العالم الإسلامي في العصر العباسي منقسماً إلى معسكرين: معسكر الحشوية والعامة، ومعسكر البلاط والمعتزلة. كان الأولون يتشبثون بحرفية القرآن والتقليد ويؤمنون بالتشبيه، وكانوا يتمثلون الله وله يدان ورجلان وعينان، وهذا أمر تأباه المعتزلة أصلاً.

أما النابتة فهي قسم من الحشوية وقد كان الجاحظ عنيفاً في الرد على هذه الفئة التي كانت تتكاثر يوماً فيوماً. وزاده عنفاً تواطؤهم والأمويين على زعزعة أسس الخلافة القائمة.

الرافضة

بعد تخلي الحسن بن علي تفرقت الشيعة في البلاد الإسلامية وعملت في الخفاء على استرجاع وحدتها ونفوذها الضائع. كان دأبها في الحقل الديني تمجيد شخصية الإمام علي وإقامة مذهب جديد شامل. لكن الاختلاف فيما بينها على وضع أسس مشتركة في العقيدة والعمل قسمها فرقاً ومدارس شتى يكاد لا يجمع بينها إلاّ الانتساب للإمام العظيم.

في تحليله هذه الفرق والمدارس عند بحثه مختلف المواضيع، كان الجاحظ يميز بين فرعين: الزيدية، أي الشيعة المعتدلة، والرافضة، أي الشيعة المتطرفة.

ولما كان العباسيون يعتبرون أنهم هم «أهل البيت» الحقيقيون، فقد سعوا إلى الحط من المقام الرفيع الذي تبوأه الإمام علي بفضل الرافضة، كما سعوا إلى استمالة الزيدية التي كانت على علاقة ضمنية وثيقة بالمعتزلة. وهذه العلاقة لم تقتصر على الناحية اللاهوتية وحدها بل تناولت بعض العقائد الدينية والسياسية. وهذا ما يبرر تحفّظ الجاحظ بصددهم عندما كان يشن على غلاة الشيعة هجماته العنيفة.

كان الجاحظ، في نقده الرافضة، يُشبهها بالمانوية تارة ناسباً إليها الزندقة وبالحشوية أو بالذميين تارة أخرى عازياً إليها التشبيه.

وفي غمرة اندفاعه الجامح كتب أبو عثمان رسالتين «العثمانية» و«مسائل العثمانية» حاول فيهما البرهنة على عظمة أبي بكر، كما حاول أن يبرهن على عظمة معاوية في رسالة «الإمامة»، ثم ناقض نفسه عندما حطّ من شأن هذا الخليفة الأموي في غير مجال.

الأمويون

خشي العباسيون دائماً ردة فعل انقلابية يقوم بها الأمويون. فكان دأبهم أبداً اخفاض شأنهم وتأليب الناس عليهم لذا حمل دعاتهم، والجاحظ في الطليعة، حملة شديدة عليهم.

لقد طاب لأبي عثمان أن يحمل على الأمويين لسببين بارزين: أولاً لأنهم أعداء بني العباس، أولياء نعمته ثم لأنهم قتلوا الشهيد المعتزلي غيلان الدمشقي[1].

كانت مهمته دقيقة حرجة في هذا السياق. فكيف تراه يشنّع ببني أمية ولا يمس أبناء عمومتهم، العباسيين. غير أنه استطاع، بفضل لباقته، أن يُحسن التخلص.

(1) قتله هشام بن عبد الملك.

ففي رسالته «فضل هاشم على عبد شمس» أقرّ ببعض صفات لعبد شمس، جدّ الأمويين، ثم استدرك فأعلن أن هؤلاء دون الهاشميين، أجداد بني العباس منزلة، وخلص إلى إنكار حقهم بالخلافة.

وما اكتفى الجاحظ بأن نسب اغتصاب الخلافة إلى معاوية وسلالته، بل شبّه أنصاره بالنابتة، وعزا إليهم من الهرطقة ألواناً.

الشعوبية

بعد الفتوحات الواسعة التي حققها الإسلام لم يعد دين شعب مصطفى بعينه، بل أصبح ديناً عالمياً. ولا غرو فقد اعتنقته عناصر متعددة الأجناس والبلدان عُرفت بالموالي. وهؤلاء، رغم استعرابهم من حيث اللغة، ما كانوا ليمتزجوا بالمجموعة العربية ويتنكروا لماضيهم وتقاليدهم وعاداتهم.

كان مُعظم الموالي من أبناء فارس، وكانوا يختلفون تماماً عن المُعتقين القدامى في الإسلام (كجدّ الجاحظ) الذين نسوا أو حاولوا أن ينسوا أصلهم الأجنبي ليذوبوا في البوتقة العربية الكبرى.

بعد أن تدفق الموالي، المعروفون بثقافتهم وبراعتهم في الأعمال، نحو العراق، أخذ الانقسام بين الحضر، وجلّهم من الموالي والبدو، يبرز يوماً فيوماً. صار الأولون يتولون تدريجاً شؤون البلاد العامة ويتدبرون أمورها. وما انتبه العباسيون إلى هذا الخطر إلا بعد أن استفحل، فعبّأوا كلّ قواهم لصدّ تيّار الشعوبية. وهذه الفئة، كما هو معروف، تقول بالمساواة بين الأجناس في الإسلام ولا فضل على آخر إلاّ بنسبة تقواه، وهي تنكر بالتالي على العرب أي أفضلية.

وردّاً على الشعوبية ودُعاتها، وضع الجاحظ كتابيه «البيان والتبيين» و«البخلاء» وعدّة رسائل، ليعظّم شأن العرب في حضارتهم وآدابهم وتاريخهم، حاملاً على الشعوبيين المتسترين بالإسلام لنشر الزندقة الصادرة عن مذهبي زرادشت وماني وبثّ الدعاوة للحضارة الفارسية ومجد بني ساسان.

«واعلم أنك لم ترَ قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه ولا أشدّ استهلاكاً لعرضه، ولا أطول نصباً، ولا أقلّ غنماً من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم على طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعّر تلك النيران المضطرمة، ولو عرفوا أخلاق كل ملّة، وزي كل لغة، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم، وما علة كل شيء من ذلك و لم اختلقوه، ولِمَ تكلفوه لأراحوا أنفسهم، وخففت مؤنتهم على من خالطهم»[1].

لقد عزا إليهم كل أسباب الفتور الديني والتشكك في العقيدة، وما ترك قبيحة إلا وألصقها بهم، كما شأنه في كل حملاته على من غضب بنو العباس عليهم.

---

(1) البيان والتبيين، ج3، صفحة 14.

أبو سلوم المعتزلي

فئات المجتمع

أتاحت للجاحظ ظروف حياته أن يتصل بمعظم طبقات المجتمع ويعايشها فيدرسها بتدقيق : من الخليفة والبلاط ، إلى البورجوازية المستحدثة ، إلى أصحاب الصناعات ، إلى جمهور العامة ، يصوّر تارة ويمدح تارة ويقدح تارات .

فما هي أهم الفئات التي لفتته خصوصاً فتناولها قلمه ؟

الخليفة والبلاط

كان للخليفة حرمة فريدة زمن الجاحظ . فهو لم يكن أمير المؤمنين وخليفة النبي الكريم فحسب ، بل كان عاهلاً زمنياً ورئيساً دينياً ، يوم لم يكن ثمة دستور يحدّ من سُلطة العاهل ، وفي سلطنة تمتد من بلاد الصين إلى البحر الأبيض المتوسط .

رغم أن الجاحظ لم يكن من حاشية البلاط ، فقد كان له من النفوذ الأدبي ما أتاح له أن يلازم غير خليفة ووزير ، ويعرف دخائل الأمور ليُطلعنا عليها بتدقيقه المعهود . فقد روى أن بعض الخلفاء كان يستلذ الخمر[1] ويستعذب الصوت الحسن ، وأن المهدي هام بجارية اسمها «جوهر» أوحت إليه بعض الشعر .

وأشار الجاحظ إلى انفعالات عفوية تنم عن عقلية الملوك وانتفاضتهم كما تظهر سطوتهم على الشعب . وروى أن سعة صدر الخلفاء اجتذبت الأدباء والعلماء والفنانين إليهم فتناظروا في حضرتهم ، في شؤون اللغة والأدب والفلسفة والقانون ، وحتى في قضايا السياسة والدّين . وأضاف مؤكداً أن الخلفاء ووزراءهم ما أبدوا فقط تساهلاً في مثل هذه الأمور بل شجعوها واشتركوا فيها . وكثيراً ما نوقشت ، أمام أمير المؤمنين نفسه ، قضايا تخالف رأي المسلمين في الله والخلق

(1) الحيوان ، ج4 ، صفحة 157 .

وحرية العباد .

لم يستأثر الجاحظ وحده بذكر هذه الوقائع ، بل أوردها أيضاً المسعودي والأصفهاني وابن قتيبة وغيرهم من كتّاب العصر .

ومن المسائل التي دوّنها أبو عثمان مراسم اللياقة المتبعة في التعزية وما إليها من مجاملات البلاط[1] ومفروشات المجالس في الصيف والشتاء[2] ، والمآكل التي كان يؤثرها الخلفاء على سواها[3] .

إلا أن في اللوحة التي رسمها صاحبنا عن حياة الخلفاء والمقربين منهم لمسات تعوزها الجرأة . فالملذات المتطرفة أحياناً التي كانت تُعقد حلقاتُها في القصور ، والتي أفاض المسعودي والأصفهاني (في مروج الذهب والأغاني) في وصفها مرّ عليها الجاحظ مروراً خاطفاً . وقد أغضى كذلك عن استبداد العظماء وشذوذهم وأطوارهم ولم يشر إليها إلا مداورة ، فصحّ فيه قول الشاعر :

«وعين الرضى عن كل عيب كليلة»

* * *

المشعوذون

كانت الثقافة الصحيحة التي تشبّع منها الجاحظ وقفاً على فئة مختارة من الناس . أما عامة الشعب فكانت قانعة بجهلها يروقها هوس العاطفة وتلذها أوهام الخيال .

كان من الطبيعي في مثل هذه الحال أن يكثر المشعوذون وأضرابهم فيفيدوا من سذاجة البسطاء والبدائيين ، فإذا هنا طبيب يزعم امتلاك الداء الشامل لكل علّة ، وإذا هناك منجّم يمسك بمفتاح الغيب ، وإذا هنالك ساحر يكيّف على هواه مصائر

(1) البيان والتبيين ، ج3 ، صفحة 211-214 .

(2) البيان والتبيين ، ج3 ، صفحة 66 .

(3) الحيوان ، ج1 ، صفحة 283 .

البشر ، فضلاً عن المفسرين من أصحاب الحل والربط في بلوغ النعيم . ولئن حمل الجاحظ على خداع هؤلاء المستثمرين ، فهو لم يرحم سذاجة ضحاياهم ، فشمل الفئتين بنقمته كما سنرى .

الأطباء

ما استهدف الجاحظ في نقده الأطباء ، بوجه عام ، بل المزيفين منهم أو ذوي الجشع . أما الحقيقيون أصحاب الرسالة من تلامذة جالينوس وأبقراط وبختيشوع فكان يجلّهم ويستشهد بآرائهم كلما تطرق لقضية علمية لها علاقة بهم .

على المزيفين الأغبياء كانت شهادته قاطعة مبرمة تقضي بقطع دابرهم لا سيما إن لعب بهم الغرور . أما عن ذوي الجشع فيقول بلا تردد : إنهم يهللون لانتشار المرض حتى تنفتح أمامهم أبواب الرزق . فلو أرشدوا إلى ما يحسم العلل لبارت سوقهم حتماً ، ومن هنا كان شرّهم أكيداً .

المنجمون

رأى الجاحظ خطر المنجمين أشد أثراً من خطر الدجّالين من الأطباء لأنهم يزعمون التنبؤ بالمستقبل واكتشاف الغيب عن طريق الكواكب فتستسلم العامة لشعوذتهم وتشبههم بالأنبياء . وقد دفع صاحبنا إلى مقارعتهم أمران مهمّان بالنسبة إليه : أولهما إثبات صحة نبوة رسول المسلمين ، محمد بن عبد الله ، وقد شاء بعضهم أن يشك فيها ، ثم نزعته الفطرية إلى قمع الغش أنّى وجد .

وفي سبيل فضح أكاذيب المنجمين عمد الجاحظ إلى مقارنتهم برسل السماء ليبين بُعدَ الشقّة بين الفريقين . فالمنجمون في رأيه ، قلّما يصيبون الحقيقة . بينما الأنبياء معصومون من الضلال . ولكن للمنجمين ، مع هذا ، أثرهم على العامة ، فهم إذا كذبوا لا ينكشف كذبهم على التو ، لأنهم يتحدثون عن المستقبل . أما إذا صحت مصادفة إحدى نبوءاتهم المزعومة فمجدهم وطيد مستمر[1] .

(1) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة 139 .

وعلى طريقته الهزلية المألوفة شبّه الجاحظ المُنجمين بالدجّالين من الأطباء، أولئك الذين إن مات مريضهم نسبوا موته إلى الأقدار، وإن شفي، وقلّما يشفى، تبجّحوا بفعالية العلاج.

ولم ينفرد صاحبنا بالحملة على المنجّمين درءاً لشرهم المستطير، بل حمل معه عليهم غير ثائر وشاعر. أما استهلّ أبو تمام قصيدته في تهنئة المعتصم بفتح عمورية مندّداً بأكاذيب المنجمين؟[1].

المفسرون

جعل الجاحظ في فئة المشعوذين بعض الجهلة من مفسري القرآن والحديث مقاماً بارزاً، ووضع في طليعتهم القُصّاص الذين كانوا يكيفون الأحاديث حسب أهوائهم ومصالحهم. فعلى غرار المنجمين والسحرة كان بعض القَصاصين يتعيشون من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. كانوا يؤولونها ويشوهونها قصد تدعيم سلطانهم على العامة. وكان على الجاحظ أن ينزع ستار الشعوذة عن هؤلاء المفسرين المُشوهين ويفضح نواياهم الدنيئة وحقيقة نفوذهم. وأفضل وسيلة لجأ إليها لإظهار سخافتهم كانت سرد بعض تفسيراتهم معلقاً عليها تارة ومستغنياً عن التعليق طوراً، وفي هذا يقول:

«زعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد، وأن الخنزير خلق من عطسة الفيل، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لّما تأذوا من كثرة الفأر وشكوا إلى نوح ذلك سأل ربه الفرج، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس. فلما عطس، خرج من منخريه زوج سنانير، ذكر وأنثى، خرج الذكر من المنخر الأيمن، والأنثى من المنخر الأيسر، فكفياهم مؤونة الجرذان. ولما تأذوا برائحة نجوهما شكوا ذلك إلى نوح فشكا ذلك إلى ربه، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح، فسلح زوج خنازير، فكفياهم مؤونة رائحة النجو. وهذا الحديث نافق عند العوام

---

(1) السيف أصدق أنباء من الكتب.

وعند بعض القَصاص، وقد أنكرنا أن يكون الفأر تخلق إلا في أرحام أناثها من أصلاب ذكورها»[1].

وفي مجالات أخرى يفند الجاحظ مزاعم هؤلاء المشعوذين بصدد الجنّ والشياطين والغول والحيّات ويدعو العامة إلى اتقاء خداعهم وإغلاق باب الارتزاق في وجههم[2]:

«لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة، وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية، على غير أساس، وكلّما كان المفسّر أغرب عندهم، كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسري والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة، فكيف أثق بتفسير، وأسكن، إلى صوابه، وقد قالوا في قوله عزّ وجلّ: (وإن المساجد لله)، إن الله عزّ وجلّ لم يَعنِ بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها، بل إنما عني الجباه وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة، وقالوا في قوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾، إنه ليس الجمال والنوق، إنما يعني السحاب، وإذا سئلوا عن قوله: ﴿وطلح منضود﴾، قالوا: الطلح هو الموز، وجعلوا الدليل على أن شهر رمضان كان فرضاً على جميع الأمم، وإن الناس غيروه، قوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾، وقالوا في قوله تعالى: ﴿رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾، قالوا يعني إن حشره بلا حجة، وقالوا في قوله تعالى: ﴿ويل للمطففين). والويل واد في جهنم، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي، ومعنى الويل في كلام العرب معروف. وكيف كان الجاهلية قبل الإسلام؟ وهو من أشهر كلامهم، وسئلوا عن قوله تعالى: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، قالوا: الفلق واد في جهنم، ثم قعدوا يصفونه، وقال آخرون: الفلق المقطرة بلغة اليمن، وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿عيناً فيها

---

(1) الحيوان، ج5، صفحة 106.

(2) الحيوان، ج4، صفحة 164؛ وج5، صفحة 214 إلخ...

تسمى سلسبيلاً﴾، قالوا: أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة ببعض، قالوا: وإنما هي: سل سبيلاً إليها يا محمد، فإن كان كما قالوا فأين معنى «تسمى» وعلى أي شيء وقع قوله «تسمى»، فتسمى ماذا؟ وما ذلك الشيء؟...

المعلمون

لم تكن للمعلمين سمعة طيبة عند العرب على وجه العموم. وقد يكون ذلك نتيجة رواسب من العهد الذي كان فيه المعلمون عبيداً أو يهوداً[1]، أو نتيجة سوء مسلك بعضهم وحقارة نفوسهم.

وقد وضع الجاحظ رسالة خاصة في المعلمين، ضاع أكثرها، ضمّنها نكات قارصة للحط من قدرهم.

يقول أبو عثمان في مقدمة إحدى حكاياته أنه ألّف كتاباً عن المعلمين وإهمالهم، ثم اتفق له أن عبر على كُتّاب فوجد معلماً في هيئة حسنة وقماش مليح، قام إليه وأجلسه معه. فاتحه أبو عثمان في القرآن فإذا هو ماهر، وفي شيء من النحو فإذا هو ماهر، ثم في أشعار العرب واللغة، فإذا به كامل في جميع ما يُراد منه، فقال في نفسه: لا بد من صرف النظر عن كتاب المعلمين. وكان كل قليل يتفقده ويزوره. إلا إنه أتى يوماً لزيارته فوجد الكتّاب مغلقاً. وهنا يروي الجاحظ الواقعة بنفسه فيقول:

«فسألت جيرانه. فقالوا: مات عنده ميت. فقلت: أروح أعزيه. فجئت إلى بابه فطرقته فخرجت إليَّ جارية قالت: ما تريد؟ قلت: مولاك. فقالت: مولاي جالس وحده في العزاء ما يعطي لأحد الطريق. قلت: قولي له صديقك فلان يطلب أن يعزيك. فدخلت وخرجت وقالت: بسم الله. فعبرت إليه فإذا هو جالس وحده، فقلت: أعظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وهذا سبيل لا بدّ منه فعليك بالصبر. ثم قلت: أهذا الذي توفي ولدك؟

---

(1) موسوعة الإسلام، ج3، صفحة 411.

قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فمن ؟...
قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذا أولى المناجس . وقلت له : سبحان الله ، تجد غيرها وتقع عينك على أحسن منها . فقال : وكأني بك وقد ظننت أنني رأيتها . فقلت في نفسي : هذه منجسة ثانية . ثم قلت : وكيف عشقت من لا رأيته ؟ فقال : اعلم أني كنت جالساً وإذا رجل عابر يغنّي وهو يقول :

يا أمّ عمرو جزاك الله مكرمةً ردّي عليّ فؤادي أينما كانا

«فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا مثلها ما كان الشعراء يتغزلون بها . فلما كان بعد يومين عبر عليّ ذلك الرجل وهو يغنّي ويقول :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

«فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها وقعدت في العزاء منذ ثلاثة أيام . فقال الجاحظ : فعادت عزيمتي وقويت على كتابة الدفتر لحكاية أم عمرو .

وتُنسب إلى الجاحظ عدة نوادر على هذا الطراز نُورد منها على سبيل المثال :

«مررتُ بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكرة وطبل وبوق . فقلت : ما هذه ؟ قال : عندي صغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر ، فأضربه بالعصا الطويلة فيفر من بين يدي ، فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجه ، فيقوم إليّ الصغار كلهم بالألواح ، فأجعل الطبل في عنقي والبوق في فمي وأضرب الطبل وأنفخ في البوق ، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إليّ ويخلصونني منهم»[1] .

«مررت على خربة فإذا بها معلم وهو ينبح نبيح الكلاب ، فوقفت أنظر إليه ، وإذا بصبي قد خرج من دار فقبض عليه المعلم وجعل يلطمه ويسبه ، فقلت : عرفني خبره . فقال : هذا صبي لئيم يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج ، وله كلب يلعب به فإذا سمع صوتي ظنّ أنه صوت الكلب فيخرج فأمسكه» .

---

(1) رسالة المعلمين .

«رأيت معلماً في الكتّاب وحده، فسألته، فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون. فقلت: أحب أن أراهم. فقال: ما أشير عليك بذلك. فقلت: لا بد. قال: فإذا جئت إلى رأس الدرب أكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعوك حتى تعمى».

غير أن الجاحظ إن هزئ بالمعلمين الذين كانوا من الفئة التي ذَكَرَ أو ما شابهها، فهو قد امتدح غيرهم ممّن شرّفوا مهنتهم ورفعوها إلى مستوى الرسالة حيث يجب أن تكون، فإذا به لا يسلم مُطلقاً بقول بعضهم: إنه لا ينبغي أبداً أن يؤخذ رأي المعلم أو الراعي أو زير النساء، ولا أن تقبل شهادتهم في المحاكم[1]، أو قد يصبحون، خُلفاء وسلاطين[2].

وبعد أن يُسمّي عدداً من المعلمين البارزين يقول أنه لا يجب أن تحتقر رسالة المعلم لمجرد سخافة بعض المعلمين أو سوء تصرفهم. ففي مهنة التعليم، كفي كل مهنة أخرى، عناصر بارزة وعناصر تزحف في الظلام[3].

وطبيعي أن يدافع الجاحظ عن المعلمين، وللثقافة عنده حرمة ولا أرفع. فالمعلمون والعلماء الذين حمل عليهم ليسوا إلا المشعوذين والمستثمرين الذين كانوا يحقرون الثقافة ويسخرونها لابتزاز مال السذّج من الناس. أما العلماء الحقيقيون فكان يرفعهم إلى الأوج.

الكتّاب

في أيام الإسلام الأولى كان للكتّاب مناصب خطيرة، هي عينها التي شغلها الوزراء من بعد على اثر إنشاء منصب الوزارة الرفيع في عهد أبي العبّاس واتّباع الطريقة التسلسلية في الإدارة. ومنذ ذلك الحين تضاءل شأن هؤلاء فأصبحوا مأمورين عاديين.

---

(1) البيان والتبيين، ج1، صفحة 208.

(2) البيان والتبيين، ج1، صفحة 73.

(3) البيان والتبيين، ج1، صفحة 73.

وعلى رغم تبدل أوضاعهم ظل لبعضهم شيء من النفوذ، لكنهم كانوا على الإجمال جبناء يعملون بوحي الدسائس. وكان همّهم الأوحد الترقي في مناصبهم. وفي سبيل تحقيق هذا المرام كانت تهون كل الوسائل والكرامات. وقد خصّ غير كاتب هذه الطبقة الوصولية ببعض أدبه محاولاً أن يزوّدها بما يلزمها من ثقافة ولياقة وأخلاق[1].

وقد حمل ادّعاء هؤلاء الجاحظ على بيان واقعهم كما هو، فرسم لهم صوراً لا يجاريها دقّة وظرفاً إلا صوره عن البخلاء، ومن هذه الصور:

إنهم أغرار يدّعون الذكاء، إن مدحهم أحد الناس، لغاية في نفسه، تمايلوا كالطاووس وحسبوا أنهم سادة الرأي وولاة الأمور. فبقدر ما يخضعون لرؤسائهم بقدر ذاك يتكابرون على عامة الناس[2].

إنها نفسية المأمور الوصولي في كل زمان ومكان ينفذ أبو عثمان إلى صميمها كما نفذ إلى أعماق بخيل أو حاسد كل عصر ومصر.

ويزيد صاحبنا صورته توضيحاً فيقول إن مهنة الكاتب هي من الحقارة حتى لا يمارسها إلا الخدم والأتباع وما إليهم. وليس في التاريخ عظيم زاولها[3]. ومع هذا يتباهى الكتّاب بمهنتهم ويتنافسون في البذخ والظهور بمظهر الأسياد. وحسب واحدهم أن يشغل منصباً ويرى المحبرة أمامه ويحفظ شيئاً من نوادر بزرجمهر حتى يخال نفسه حكمَ الثقافة وربَّ البطولة.

وإذا شاؤوا التمادي في إظهار عظمتهم تنطحوا لنقد القرآن الكريم وتركيبه. وإن لم يجدوا غريباً يحملون عليه تناحروا فيما بينهم.

وروى الجاحظ أنه دخل يوماً ديوان المكاتبات في بغداد فرأى قوماً قد صقلوا ثيابهم وصففوا عمائمهم ووشوا طرزهم، فقال: «هؤلاء كما قال الله تعالى. فأما

(1) بين هؤلاء، نذكر القلقشندي «صبح الأعشى» والصولي وابن قتيبة في كتابيهما «أدب الكاتب».

(2) ثلاث رسائل لفنكل، صفحة 49.

(3) ثلاث رسائل لفنكل، صفحة 42.

الزبد فيذهب جفاء. ظواهر نظيفة، وبواطن سخيفة، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون».

وما كان المسعودي ولا ابن قتيبة يوفران[1] نقدهما اللاذع عن هؤلاء الجهلة المتغطرسين. إلا أن تصوير الجاحظ الكاريكاتوري يبقى فريداً في بابه.

التجار

إن حمل الجاحظ على الكتّاب «الطواويس» فأرهقهم بسهام نقده، فقد امتدح استقلال التُجّار وعزّة نفوسهم. رأى أنهم أسعد الخلق لأن لهم من القوة في بيوتهم ما للملوك على العروش. فهم ليسوا مرغمين على توسل نعمة العظماء، ولا على اتقاء ردة فعلهم. إن لهم حرمة شاملة ورأياً مسموعاً، فكان من الطبيعي أن يكون لهم نفوذ كبير في كل مكان[2].

وتدليلاً على تفوق التجارة يذكر الجاحظ أن أسرة النبي الكريم قد مارستها واشتقت منها اسمها. فكلمة قريش مشتقة من قروش. ومحمد بن عبد الله نفسه زاول التجارة في مرحلة من مراحل حياته[3].

وإذ يُظهر الخصائص الرفيعة التي تُميز التجّار عن عامة الأثرياء لا يغفل عن التوضيح بأن يسرهم المالي ما كان يمنعهم عن تذوق قضايا الفكر والفنّ معدداً على سبيل التدليل غير اسم معروف بينهم في عالم الآداب والعلوم.

لكنه إن أعجب بالتجار المستقيمين المخلصين فلم يتوانَ عن القدح بالخسيسين بينهم الذين يستثمرون، بدناءة، سذاجة الشعب، ولا أن يشنع بالمرتزقة عبيد الدرهم وقد رأينا على ذلك أمثلة بليغة في وصفه المستثمرين البخلاء..

ولا بد لمن يسمع إشادة الجاحظ بالتجار واستقلالهم من أن يدرك مدى الألم

---

(1) مروج الذهب، ج6، صفحة 29-30 وأدب الكاتب، صفحة 3.

(2) مجموعة رسائل، صفحة 155.

(3) مجموعة رسائل، صفحة 157.

العميق الذي كان يساوره، لأنه كان مضطراً لأن يصانع العظماء أحياناً في سبيل تأمين رزقه. فهو لو كان ميسوراً متحرراً لما كان اندفع هذا الاندفاع في إعجابه بهم.

المترجمون

كان لحركة الترجمة أثرها الخيّر في ازدهار الحضارة العباسية، إلا إن هذه الترجمة ما كانت تخلو أحياناً من الشوائب. فالإبهام في النصوص المترجمة كان شائعاً والتفسير السيء مألوفاً. ومرد هذا إلى قلة التعابير التقنية في لغة الضاد بقدر ما مرده إلى الترجمة عن غير الأصل[1] أو إلى جهل بعض المترجمين.

وكان عدم وثوقه بالمترجمين يدفعه إلى الحط من شأنهم ودحض الأكاذيب التي يلجأون إليها لتبرير مواقفهم، وإلى فضح عوراتهم وخطل تأويلهم ونقلهم. وكثيراً ما وجد بينهم وبين البحّارة أو الصيادين قرابة وثيقة من حيث المبالغة أو التلفيق في سرد الأخبار والأساطير[2].

في معرض نقد المترجمين يبدي الجاحظ ملاحظات قيّمة بصدد الترجمة وصعوباتها وتعذر وجود المترجم الأمثل: «إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجريء، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والأخبار عنها على حقها وصدقها إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه، فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرّة وابن قهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ومتى كان خالد مثل أفلاطون؟! ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس

---

(1) كانوا يترجمون غالباً من السريانية إلى العربية. والترجمة السريانية مأخوذة بدورها عن اليونانية.

(2) الحيوان، ج6، صفحة 19 وصفحة 280.

الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيها سواء وغاية، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأن كل واحد من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق والعلماء به أقل كان أشدّ على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه، ولن تجد البتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء، هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين...[1].

وهذا الحكم الصارم في الظاهر لا يخلو من الموضوعية، وذلك لأن تعلم اللغات في ذلك العهد ما كان عميق الجذور فلذا كانت تقع أخطاء جسيمة وحتى تأويلات معاكسة للمعنى المقصود. وكان يزيد هذه الترجمة المشوهة تشويهاً جهل النساخ. ومن نتيجة الترجمة المعيوبة هذه أساء الفلاسفة العرب الأولون فهم آثار اليونان الفلسفية فعزوا إلى أرسطو بعض كتب أفلوطين وبروكلوس، لكن الجاحظ كان حازماً في نفيه إمكان النقل الأمين، فكأنه لم يكن شديد التفاؤل بنتيجة التقدم في علم اللغات...

البحريون

كان البحريون في عهد الجاحظ من الفئة النادرة التي تتجشم الأسفار البعيدة وتشاهد البلدان الغريبة. وكثيراً ما عاد هؤلاء إلى ديارهم مدهوشين بما رأوه فلا يستطيعون التعبير عن دهشتهم إلا باختلاق الأساطير. والناس «موكلون بحكاية كل عجيب، وميسرون للأخبار عن كل عظيم، فضرب المثل بكذبهم وخرافاتهم».

---

(1) الحيوان، ج1، صفحة 38.

كثيراً ما توقف أبو عثمان عند حكايات البحريين وفندها واتخذها مجالاً للتهكم عليهم كما في قوله: «وسمعت حديثاً من شيوخ ملاحي الموصل، وأنا هائب له، ورأيت الحديث يدور بينهم، ويتقبله جميعهم، وزعموا أن الأسد ربما جلل قلس السفينة، فيتشبث به ليلاً، والملاحون يمدون السفينة، فلا يشكون إن القلس قد التف على صخرة، أو تعلق بجذم شجرة، ومن عادتهم أن يبعثوا الأول من المدادين ليحله، فإذا رجع إليه الملاح ليمده الأسد بالأرض، ولزق بها، وغمض عينيه كيلا يبصر ويبصهما بالليل، فإذا قرب منه وثب عليه فخطفه، فلا يكون للملاحين هم إلا إلقاء أنفسهم في الماء، وعبورهم إليه، وربما أكله إلا ما بقي منه، وربما جر فريسته إلى عريسه وعرينه، وإلى إجرائه وأشباله، وإن ذلك على أميال[1].

ولكن الجاحظ، مع هذا كان يستند إلى اختبار البحريين في تحقيقاته العلمية عندما يوقن من صحتها ويتخذها حجة أحياناً في الردّ على قضايا علمية لم يقتنع بها. وقد اتفق له أن استند إلى رأي أحد البحريين ليحاجّ أرسطاطاليس في بعض رده عليه:

«وقد قلت لرجل من البحريين، زعم أرسطاطاليس أن السمكة لا تبتلع الطعم أبداً إلا ومعه شيء من ماء: مع سعة المدخل، وشره النفس، فكان من جوابه ان قال لي: ما يعلم هذا إلا من كان سمكة، أو أخبرته به سمكة، أو حدّثه بذلك الحواريون أصحاب عيسى، فإنهم كانوا صيادين، وكانوا تلامذة المسيح، وهذا البحري صاحب كلام، وهو يتكلف معرفة العلل، وهذا كله جوابه»[2].

إن دلّ هذان الاستشهادان عن البحريين إلى شيء فإنما يدلان على تحفظ الجاحظ في نقده طبقات المجتمع. فهو يميز دائماً في الطبقة الواحدة بين العنصر الصالح والعنصر الطالح مستنداً إلى البراهين المنطقية.

(1) الحيوان، ج2، صفحة 45.

(2) الحيوان، ج6، صفحة 6.

المتصوفون والزهّاد

ما كان المتصوفون والزهّاد ليلقوا هوى في نفوس أهل السنّة لأنهم كانوا في نظرهم مفكرين أحراراً يميلون إمّا إلى التحرير الروحي ، وإما إلى توسيع آفاقهم الدينية . وفي كلا الحالين كانوا يبتعدون بزهدهم شيئاً فشيئاً عن الصراط الإسلامي المستقيم تحت تأثير الهنود والنصارى وأتباع ماني .

وفي سبيل صدّ تيار الصوفية الدافق نسبت السلطات الدينية الزندقة إلى هذا المذهب وعاقبت أتباعه على غير هوادة .

في حملته على هذه الفئة «الشاذة» كان الجاحظ ينسب إليها الخداع الديني لتحقيرها ، ولا يدّخر هزءاً ، ولا لدغة ، للتعريض بطرقها ومعتقداتها الخاصة . لقد قسمها طبقات ، فالزهد عند المتكلمين المشككين يقوم على نسبة الشك إلى الغير وعند الخوارج هو إظهار هول الخطيئة دون أن يروا ما يقومون به من اضطهاد . أما بين الزهّاد أنفسهم فالكسالى منهم يعظون بالانصراف عن المغانم بينما هم يتسولون بفخر[1] .

وشر ما كان يخشاه أبو عثمان هو أن تنتقل إلى الإسلام ، عن طريق المتصوفين والزهّاد ، بعض التأثيرات المسيحية والمانوية فتمس صلابته ، لا سيما وأن التنسك الذي ألمح إليه غير مرة كان آخذاً في الشيوع باستمرار .

المتكلمون

كان من أثر علم المنطق الذي راج بفضل الترجمة عن الفلسفة اليونانية وأرسطو بنوع خاص أن الفئة المثقفة من المسلمين راحت تفكر في قضاياها الدينية على ضوء جديد . لقد زودهم المنطق بحجج مُزعزِعة ووسائل تفتيش فعالة تضاءلت أمامها الأساليب البدائية ، فنشأ عن هذه الحاجة الذهنية علم الكلام أو فن التعليل الأسلوبي في خدمة أسرار الدين وازدهر ازدهاراً سريعاً .

---

(1) الحيوان ، ج1 ، صفحة 218 .

كثيراً ما انعقدت حلقات المثقفين حول المواضيع الدينية أو الفلسفية لمناقشة آراء مختلف الشيع ، فكان شأن علم الكلام في اللاهوت ، شأن الرأي في القانون ، أي التوجيه إلى الوثوق بالتعليل الفردي السليم مع الإيمان بالوحي وأحاديث النبوة .

أعتقد المتكلمون أن الإله لا يمكن أن يأتي أعمالاً تناقض العقل . وبوحي هذا الإعتقاد كانوا ينظرون إلى بعض الشؤون الدينية . ومن أبرز أولئك المتكلمين كان المعتزلة .

لئن حمل الجاحظ على المفسترين المشعوذين الذين كان همّهم الخداع لأجل التكسب ، فإنه نظر إلى المتكلمين الحقيقين نظرة إكبار وإعجاب . كان يعز عليه أن يقوموا بأي عمل يحط من شأنهم ، لذا كان صارماً في نقد من أساء التصرف منهم حرصاً على سمعتهم التي ضنّ أن يرقى إليها أي شك .

كان مثلاً يأبى أن يضيع هؤلاء وقتهم الثمين في مناقشات عقيمة كالمناظرة الحادة التي دارت بين رأسين من رؤوس المتكلمين : النظّام ومعبد حول مزايا الديك والكلب ، فحمل على الرجلين معاً آخذاً عليهما المهاترات التي صرفتهما عن موجباتهما في الدفاع عن الإسلام وتنوير أذهان الشعب . وبعد أن أفرغ جعبته في نقدهما أعلن أنه إذا كانا ينظران إلى هذه المناظرة كضرب من التسلية ، لأن التسلية إن جازت للأحداث فهي لا تجوز للناضجين من الناس[1] .

والمتكلّم الذي لم يستكمل ثقافته ما كان ليختلف ، بنظر الجاحظ ، عن المفسر المرتزق ، لأنه يوجه الناس نحو الخطأ ، فالمتكلم الحقيقي هو من جمع إلى الثقافة الدينية العميقة ثقافة فلسفية أعمق[2] .

---

(1) الحيوان ، ج1 ، صفحة 200 .

(2) الحيوان ، ج2 ، صفحة 134 .

العامة الجاهلة

بقدر ما كانت تثير الجاحظ حيل المستثمرين بقدر ذاك كانت تثيره جهالة العامة التي كانت تستسلم لحبائلهم ولا ترعوي رغم نصح الناصحين. فلذا كان لا يضن عليها بنقده محاولاً توجيهها نحو الثقافة الصحيحة والمنطق. ولمّا فشل جهده الكبير لتحرير هذه الفئة الضالّة من معتقداتها الصبيانية، ولمّا خاب كل أمل بإصلاحها، رأى من العبث السعي إلى تقويم اعوجاجها لأنها أعجز من أن تفهم وتفكر وتمثل الحقيقة[1] فهي تنقاد طوعاً إلى تخيلات الكذبة والمكدّين فتقبلها على علاّتها ولا تحاول حتى أن تشك في بعضها، لكأنّها سفر مُنزل أكيد.

لقد اعتبر أبو عثمان هؤلاء الجهلة كارثة على المجتمع فأشفق على الحُكّام منهم، لأنه ليس على الأرض مهمة أعسر من تدبير شؤونهم[2]. أمّا البدو فكان يرى في معظمهم الرأي عينه فيعذرهم لأنهم يعيشون بين البهائم ولا يرون أو يعرفون غيرها[3].

* * *

هكذا رأينا الجاحظ يستعرض بريشته جلّ طبقات مجتمع عصره. فالطابع الكاريكاتوري الذي غلب على بعض صوره لا يخفف كثيراً من قيمتها، لأن شيئاً من المنطق المتأصل في صميمه يظهر حتى في أبعد شطحاته العاطفية فيحمله على العودة إلى موضوعه من جديد مدفوعاً برغبة الأنصاف قدر المستطاع.

وهذا ما يبرر في كثير من الأحيان دفاعه عن أمر ثم عن ضده. وما كان ابن قتيبة ليغفر للجاحظ هذا التناقض.

---

(1) البخلاء.

(2) الحيوان، ج2، صفحة 94.

(3) الحيوان، ج2، صفحة 137.

حول بعض وجوه المجتمع

رأينا أن الجاحظ لم يتوخَّ النقد الاجتماعي فقط، بل أفسح للشهادة الموضوعية المحررة مجالاً كبيراً أيضاً. فالمُراقِب البارع، الذي أخرج عن معاصريه لوحةً ضخمة تكاد تكون شاملة، لم يغفل عن رسم الإطار «والخلفيّة» لها، فإذا هو يصور تصويراً دقيقاً أهمّ وجوه الحياة الاجتماعية كما تبينت له.

من أبرز ما لفته من مظاهر تلك «الخلفية» سيطرة الخرافات والأساطير الشعبية واختلاط الشعوب وازدهار الحركة الأدبية. وسنخص كلا من هذه النقاط المتفرقة، التي لا صلة بينها، بمقطع مستقل.

الخرافات والأساطير

في كل مجتمع بدائي تتوجه أحكام الناس على شؤونهم بوحي الشعور لا بوحي التعليل المنطقي، فتنتشر الخرافات والأساطير وأوهام الخيال وتتأصل تأصلاً يجعلها جزءاً من التراث المشترك. وحسبنا أن نشير ههنا إلى الأثر الذي كان للميثولوجيات اليونانية والمصرية والصينية والفارسية على الشعوب، خلال حقبات طويلة من التاريخ، رغم أخذها بأعرق الحضارات، لنعرف مدى هذا التأصل.

وما كان الجاحظ المتحرر المتشكك ليتساهل بصدد هذه الخرافات الموروثة، ولا بالتأويلات الساذجة السخيفة حولها. كان يُخضع كل شيء لسلطان العقل، ولا يسلّم بصحة شيء ما لم يثبت له بشكل لا يقبل الجدل وإن احتاج إلى البرهان الحسي عمد إلى الاختبار المباشر أو احتاج إلى تحقيق عمد إلى المقارنة والتمحيص،

فنشأ عن هذه الحاجة ميله إلى التنقل والأسفار ومخالطة الناس على اختلاف أجناسهم ومشاربهم.

وفي سبيل تبديد الأوهام ونبذ الخرافات لطالما لجأ هذا الناقد إلى السخرية أو إلى التحليل ساعياً إلى تعويد معاصريه على اعتماد طرق جديدة في التفكير تُسيّرهم في طريق التقدم العلمي والحضاري. ومن أهمّ الخرافات التي عني بالقضاء عليها خرافة الجن.

الجن

يزعمون أن الجن طائفة من الكائنات مؤلفة من بخار ولهيب، أو لهيب بدون دخان، تستطيع أن تتخذ هيآت شتى. وهذه الكائنات، المخلوقة قبل الإنسان، هي أشدّ منه بأساً، لأنها تمتزج بحياة الأنس فتؤثر فيها تأثيراً سيئاً. لدرء أخطارها وتدارك انتقامها لا بدّ من الطلاسم والتعاويذ. وقد وجد مستغلّو السذاجة في هذا المجال مورداً للرزق لا ينضب.

إذ يحمل الجاحظ على خرافات الجنّ يتندر بمآثرهم التي تفوق الطبيعة. فإلى أهل تدمر المؤمنين بأن قلعتهم بناها الجنّ يقول متهكماً: إن خير وسيلة تُريحهم من التفكير والتعليل هي نسبة كل أمر عجيب إلى الجنّ.

ومن طرائف ما يرويه عن الجنّ، بلهجته الساخرة، قوله أن بعض البدو كان لا يجرؤ في الليل على صيد النعامة أو الغزال لأن الجن قد تمتطي مثل هاتين البهيمتين. ويزعم غيرهم أن الجنّ تُقيم في بلاد وبار التي قضى الله على أهلها، ثم يُضيف بأن هذا البلد أخصب البلدان، ولكن الويل لمن يتوجه إليها عَمْداً أو خطأً، لأن الجنّ تذرّ عليه تراباً قد يُعميه أو يقتله. وإن سُئلوا عن موقع هذه البلاد أجابوا: من توجّه إليها أصابه ما أصاب أنصار موسى في التيه[1].

هذه الأرواح الملعونة تهبّ، على زعمهم، لنجدة الإنسان إن ترك العالم

(1) الحيوان، ج6، صفحة 215.

وعاش في القفر واغتسل مثلها بالماء الصافي، وويل له إن نام بين بابين، فإنه قتلاً يقتل[1].

ولطائفة الجنّ هذه حليفة أقل شأناً تعرف بالحنّ ما ضنّ الجاحظ عليها بهزئه ولا بقذعه.

عن الجن وسذاجة العامة كتب أبو عثمان:

«ويقول الناس: فلان مخدوم، يذهبون إلى أنه إذا عزم على الشياطين والأرواح والعمار أجابوه وأطاعوه، فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذي كان يقال له صديق إبليس، ومنهم كرباش الهندي، وصالح المديبري، وقد كان عبيد يقول: إن العامر حريص على إجابة العزيمة، ولكن البدن إذا لم يصلح أن يكون له هيكلاً لم يستطع دخوله، والحيلة في ذلك أن يتبخر باللبان الذكر، ويراعي سير المشتري، ويغتسل بالماء القراح، ويدع الجماع وأكل الزهومات، ويتوحش في الفيافي، ويكثر دخول الخرابات، حتى يرق ويلطف ويصفو ويصير فيه مشابه من الجن، فإن عزم عند ذلك فلم يجب فلا يعودن لمثلها، فإنه ليس ممن يكون بدنه هيكلاً لها، ومتى عاد خبط، فربما جُنّ، وربما مات، قال: فلو كنت ممن يصلح أن يكون لهم هيكلاً لكنت فوق عبد الله بن هلال، قال الأعراب: وربما نزلنا بجمع كثير، ورأينا خياماً وقباباً وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا، والعوام تروي أن ابن مسعود، رضي الله عنه، رأى رجلاً من الزط، فقال: هؤلاء أشبه من رأيت بالجنّ ليلة الجن، قال: وقد روي عنه خلاف ذلك، وتأولوا قوله تعالى: ﴿وإنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً﴾، ولم يهلك الناس كالتأويل، ومما يدل على ما قلنا قول أبي النجم حيث يقول:

ـ بحيث تستنّ مع الجنّ الغول ـ

«فأخرج الجن من الغول الذي باتت به من الجنّ، وهكذا عادتهم أن يخرجوا الشيء من الجملة بعد أن دخل ذلك الشيء في الجملة فيظهر لأمر خاص، وفي

---

(1) الحيوان، ج4، صفحة 185 وج2، صفحة 175.

بعض الرواية أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزّى رمته بالشرور ، حتى احترق عامة فخذه ، حتى عوذه النبي ﷺ ، وهذه فتنة لم يكن الله تعالى ليمتحن بها الأعراب وأشباه الأعراب من العوام ، وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب»[1] .

سائر الأساطير والمعتقدات

وما أهمل الجاحظ سائر الأساطير والخرافات التي كان يلجأ إليها الشعب لتفسير بعض أمور خارقة تفوق طاقته العقلية ، أو لاجتناب إجهاد ذهنه في التحليل والتعليل . يذكر هذه الخرافات تارة بدون أن يعلق عليها لأنها تستغني عن التعليق ، وتارة يعلق عليها ليزيد من وقع سخافتها . ويروي في هذا المجال :

«سقط إلى المفاليس أن الخنافس تجلب الرزق ، وأن دنوّها دليل على رزق حاضر ، من صلة أو جائزة أو ربح أو هدية أو حظ ، فصارت الخنافس أن دخلت في قُمُصهم ثم نفذت إلى سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً ، وأكثر ما عندهم اليوم الدفع لها ببعض الرفق . ويظن بعضهم أنه إذا دافعها فعادت ، ثم دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ، إن ذلك كلما كان أكثر كان حظه من المال الذي يؤمله عند مجيئها أجزل . فانظر أية واقية وأية حافظة ، وأي حارس ، وأي حصن ، أنشأه لها هذا القول ، وأي حظ كان لها حين صدقوا بهذا الخبر هذا التصديق ، والطمع هو الذي أثار هذا الأمر من مدافنه ، والفقر هو الذي اجتذب هذا الطمع واجتلبه ، ولكن الويل لها إن ألحت على غني عالم ، وخاصة إن كان مع حدوثه وعلمه حديداً عجولاً وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير ، الشديد البطش ، الملح في ذلك ، الجهير الصوت ، الذي تسميه العوام أمير الذبان ، فكانوا يحتالون في صرفه وطرده وقتله إذا أكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه ، فإنه لا يفتر ، فلما سقط إليهم إنه مبشر بقدوم غائب وبرء سقيم صاروا إذا دخل المنزل وأوسعهم

---

(1) الحيوان ، ج6 ، صفحة 61 .

شراً لم يهجه أحد منهم . وإذا أراد الله عزّ وجلّ أن ينسئ في أجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما أنه أراد أن يقصر عمره ويحين يومه هيأ له سبباً ، فتعالى الله علواً كبيراً»[1] .

من الخرافات التي شاعت عهد ذاك ولا يزال بعضها شائعاً أن لأول يوم وآخر يوم من الشهور القمرية أثراً على الدماغ والدم والحاصلات الزراعية ، وأن الخنافس تجلب الرزق فلا ينبغي القضاء عليها ، وأن كبر الأذنين دليل على طول الحياة[2] ، وأن الشيطان لا يدخل بيتاً فيه ديك أبيض عرفه أحمر[3] ، وأن من يأكل من لحم الهر لا يفعل فيه السحر ، وأن الكمأة تبقى في بطن الأرض حتى تمطر السماء فتتحول إذ ذاك ثعباناً[4] ، وأن ثمة حية تعرف بالدسّاس تولد ولا تبيض ، وأن النمرة لا تولد جرواً إلا مطوقاً بأفعى[5] ، وأن الحية تعيش أكثر من النسر بل هي لا تموت أبداً بالرغم منها لأن الشيطان يسكنها ، أو لم يجرب إبليس آدم متلبساً إحدى الأفاعي ؟ . . وأن في قفر بني عنبر حية تصطاد الطيور بشكل غريب : عندما تشتد الهاجرة تدخل ذنبها في الأرض وترفعها كالعمود فتحط عليه الطيور التعبة فتبتلعها دون أن تنثني . وهنا يشفق الجاحظ ، من قبيل التندر طبعاً ، على جهالة ذلك الطير الذي لا يميز بفطرته بين الحيوان والخشب بقدر ما يعجب بصبر الحية على الحرارة ودهائها في خداع الغير . . .

ولا يغضي صاحبنا عن العنقاء والغول ويأجوج ومأجوج فيخص كل منها بلذعة ويمضي . كان قصده أن يثير سخرية الناس من هذه السخافات أملاً منه بأنهم يرعوون ، لا سيما وأنها قد تؤثر في معتقداتهم الدينية فتوهن صلابتها . ولكم دفق نقمة في حملته على المفسرين المشعوذين ناشري الخرافات غير الآبهين

---

(1) الحيوان ، ج3 ، صفحة 106 .

(2) الحيوان ، ج6 ، صفحة 107 .

(3) الحيوان ، ج2 ، صفحة 259 .

(4) الحيوان ، ج4 ، صفحة 222 .

5 الحيوان ، ج4 ، صفحة 154 .

للعواقب السيئة التي تخلفها في نفوس العامة الأبرياء.

ودفاعاً عن المفسرين وعن الأحاديث المزعومة التي حاول الجاحظ تحطيمها، انبرى ابن قتيبة يرد عليه بشدّة زاعماً أنه يستهزئ من الحديث استهزاءً لا يخفى على أهل العلم كذكره «كبد الحوت»[1] و«قرن الشيطان»[2] و«الحجر الأسود»[3] و«دفن الهدهد أمه في رأسه»[4].

وذهاباً من هذه الأمثلة يحاول ابن قتيبة أن ينال من استقامة الجاحظ في توجيهه الديني وينسب إليه سوء النية والتغرض. إلا إن ابن قتيبة في ذكره ما ذكر قد دان نفسه بنفسه، لأن الأحاديث المزعومة التي انتقدها أبو عثمان بارزة السخافة، بحد ذاتها، ولا تستند إلى الحقيقة التاريخية بصلة؛ فهي تقوّل واختلاق ونزوات هوى.

ولا أخال الجاحظ قام بهذا النقد إلا لينقذ الأحاديث الصحيحة التي خشي أن تضيع في غمرة الخرافات. واستناداً إلى المنطق نبذ كل حديث مشبوه وراح يفسر المعنى المجازي في الأحاديث الثابتة وبعض النصوص المقدسة[5]، فهو في تفسير الآية القائلة: ﴿إنها شجرة تخرج في اصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ يقول:

«وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة، ولكن لمّا كان الله قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين، واستسماجه وكراهته،

---

(1) يروى أن كبد الحوت هو أول طعام يقدّم لأهل الجنة لأن الحوت يحمل الثور حامل الأرض.

(2) يزعم بعضهم أن الشمس تُشرق من بين قرني شيطان ويروون حديثاً ينهى عن الصلاة عند الشروق تأييداً لهذا الزعم.

(3) يروون عن ابن العباس بن عبد المطلب أنه قال: الحجر الأسود من الجنة. وأنه كان أشدّ بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك، فقال الجاحظ متندراً: إن كان المشركون قد سودوه فقد كان يجب على المسلمين حين أسلموا أن يبيضوه.

(4) يزعمون أن الهدهد نتن الريح لأنه دفن أمه في رأسه وما القنذعة في رأسه إلا ثوابه على برّه.

(5) الحيوان، ج6، صفحة 96، وصفحة 147 وج1، صفحة 166.

وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك، رجع بالايحاش والتنفير، وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين، وعند جميع الأمم، على خلاف طبائع جميع الأمم، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن»[1].

في تأويله وفي تفسيره، كما في نقده السخافات المنسوبة إلى الأحاديث، حرّر الجاحظ الإسلام من عبء الأساطير والخرافات التي يُلحقها السذّج من الناس بكل دِين فكان فضل الجاحظية من هذا القبيل جزيلاً.

الشعوب المختلفة

كان العراق مركز الإمبراطورية الإسلامية عهد العباسيين ومحور النشاط الفكري والتجاري في العالم. لذا اجتذب إليه شعوباً مختلفة الأصل، منها ما ألّف مجتمعات شبه مغلقة على ذاتها، ومنها ما امتزج بمجموعة الشعب. وفي كلا الحالتين بقيت لهذه الشعوب خصائص وعادات ما خفيت عن نظر الجاحظ الفضولي فجال فيها على هواه، وقد توقف خصوصاً عند الموالي من فرس وترك وزنوج ويونان وأحباش وهنود ونوبيين.

الأتراك

خشي الخلفاء العباسيون نمو النفوذ الفارسي المطرد إذ رأوا فيه خطراً على استقرار ولايتهم، فركنوا إلى الأتراك، وقد وجدوهم أشد إخلاصاً لهم، وكانوا يجمعون هؤلاء عادة من على أسواق بغداد حيث قذفت بهم الحروب من أواسط آسية.

ففي ولاية المأمون كان نفر من العبيد الأتراك[2] في جملة القادة. وازداد عددهم وتوطد سلطانهم في عهد الخليفة المعتصم الذي عهد إليهم بمراكز حساسة

---

(1) الحيوان، ج4، صفحة 13.

(2) أبرزهم افشين.

في الجيش وفي الإدارة .

وقد أظهر الأتراك من الولاء والانضباط ما حببهم إلى نفوس الولاة . إلا أنهم ما أدركوا أهميتهم حتى جمح بهم الطموح . وانتهى بهم الأمر إلى التحكم بشؤون السلطنة وفرض إرادتهم في تعيين الخلفاء . ويذكر المؤرخون أن القائدين التركيين واصف وإيتاخ قد نصّبا المتوكل خليفة بعد موت أخيه الواثق .

أُعجب الجاحظ بدوره بهذا الشعب الجريء المنضبط ، أول الأمر ، فوضع رسالة عنه عنوانها «مناقب الترك» أطرى فيها صفاتهم العسكرية محاولاً أن يمهد لاعتبارهم كركيزة ثالثة للخلافة مع العرب والخراسانيين . وكانت حجته الأولى أن الأتراك يفرضون الاحترام بنخوتهم ووفائهم بقدر ما يفرضه الفرس بموهبتهم الإدارية وثقافتهم وذوقهم الأدبي والفني . وقد ذهب في مدحه الأتراك إلى أبعد من ذلك ففضلهم على الخوارج والخراسانيين إذ قال : للخارجي عيب في مستدبر الحرب وللخراساني عيب في مستقبل الحرب . فعيب الخراسانية أن لها جولة عند أول الالتقاء ثم تنهزم . أما الخوارج فإن ولّوا فلا كرّ لهم بعد فرّ بينما التركي هو الراعي والسائس والرائض والنخّاس ولأن «ينال الكفاف غصباً أحب إليه من أن ينال الملك عفواً» .

الزنوج

كان يفهم الجاحظ بالزنوج الجنس الأسود عموماً (بما فيه الهنود) ما عدا سكان القسم الشمالي ، أو الشاطئ الشرقي ، من المناطق الإفريقية التي يقطنها زنوج اعتنقوا الإسلام .

كانت القوافل التي تتردد إلى هذه البلدان وإلى الشرق الأقصى تعود بعدد كبير من العبيد في أواخر القرن الهجري الأول . وكان هؤلاء ، على حد قول الطبري ، يُستخدمون في الحفر أو في خدمة العائلات الميسورة .

أثار وضع هؤلاء الناس شفقة أبي عثمان ، (لكأنه ذكر اصله الزنجي) فدافع

عنهم بدون تحفظ وفضّلهم على البيض في رسالته «فخر السودان على البيضان». وقال في مجال الردّ على خصومهم أن الله ما خلقهم سوداً لتحقيرهم. فما لونهم إلا نتيجة حتمية لمناخ بلادهم الحارة. وأي عيب في ذلك بعد، أليست حدقة الإنسان أعزّ ما لديه مع أنها سوداء!..

غير أن للجاحظ رأياً آخر في أهل زنجبار الذين كانوا يقيمون مع الزط في البطائح بين البصرة وواسط، لأنهم كانوا يبدون له أحمق البشر وأقلهم بصيرة واهتماماً بغدهم[1]، ولكنه كان بصدد نسائهم أشد تساهلاً لأنهن جميلات الثغور، حسنات الصوت، مقتصدات وبارعات في الطبخ[2].

شعوب شتى

وعرف الجاحظ سائر الشعوب في بغداد فأورد عنها تفاصيل مفيدة للتاريخ. وقد لفتته فئة الخصيان الذين كانوا يفدون من الحبشة وبلاد النوبة أو السودان فيعملون كحرّاس للحريم أو كخدم. وهو إذ يصف خصائصهم وطريقة حياتهم ومختلف نزعاتهم لا يتوانى عن الإشفاق على انفعالاتهم أمام النساء.

ويقول الجاحظ عن البيزنطيين أنهم أبخل شعوب المعمور فليس في لغتهم كلمة واحدة تعبّر عن الكرم، وعن الأنباط أن لهم وجوهاً تشبه وجوه القرود[3].

حتى الأطعمة المختلفة التي كانت تؤثرها هذه الشعوب تحدث الجاحظ عنها فروى أن البيزنطيين يأكلون المحاشي والمغالي، والفرس يميلون إلى الطعام البارد الحلو، أما البدو فيحبون اللبن والجراد والكمأة والتمور[4].

---

(1) البخلاء.

(2) الحيوان، ج1، صفحة 106.

(3) الحيوان، صفحة 173.

(4) الحيوان، ج3، صفحة 434.

أثر البيئة

أدّى التحقيق العلمي بالجاحظ إلى اعتبارات قيّمة حول أثر البيئة في الشعوب[1]. وفي هذا يستند إلى قول بعضهم أنه إذا فسد الهواء في ناحية من النواحي فسد الماء وفسدت التربة فعمل ذلك في طباع السكان على الأيام، «كما عمل ذلك في طباع الزنج، وطباع بلاد الصقالبة، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج، وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان، انسلخوا من جميع تلك المعاني، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم، من سبع وبهيمة، على طبائعهم، وترى جراء البقول والرياحين وديدانها خضرا، وتراها في غير الخضرة على غير ذلك، وترى القملة في رأس الشاب الأسود الشعر سوداء، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء، وتراها في رأس الأشمط شمطاء، وفي لون الجمل الأورق ورقاء، فإذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء، فإن نصل خضابه صار فيها شكلة من بيض وحمر، وقد نرى حرة بني سليم، وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة، فتراها كلها سوداء، وقد خبّرنا من لا يحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان، ولهم أذناب إلا تكن كأذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل، وإلا كأذناب السلاحف والجرذان، فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب، وربما رأينا الملاّح النبطي في بعض الجعفريات، على وجه شبه القرد، وربما رأينا الرجل من المغرب، فلا نجد بينه وبين المسخ إلا القليل، وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد، والماء الخبيث، والتربة الردية، ناساً في صفة هؤلاء المغربيّين والأنباط، ويكونون جهّالاً، فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون، فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور، وفي تلك الأذناب، وفي تلك الألوان الشقر، وفي تلك الصور المناسبة للقرود».

هذه الاعتبارات عينها أخذ بها علم الاجتماع الحديث استناداً لنظريات

---

(1) الحيوان، ج4، صفحة 24.

هيبوليت تين . لكن أخذه بها لم يكن مطلقاً ، كما شاءه الجاحظ وشاءه تين من بعده ، فأبو عثمان يُقرّر ذهاباً من اعتباراته هذه أن البيئة تكيّف الناس ، إن ساعدتها العناية الإلهية ، وتبلور شخصياتهم وخصائصهم وعاداتهم[1] . ويمضي بالتالي إلى تصنيف الشعوب فئات فئات بالنسبة إلى بيئاتهم وبعض عاداتهم وخصائصهم المهنية أو الفنية . فإذا العرب قد عمدوا إلى الشعر لحفظ ذكرياتهم ومآثرهم بينما فضّل الفرس القلاع والحصون والأضرحة . وإذا الصينيون يبرعون في الحِرَف ، واليونان في الفلسفة والآداب ، والفرس الساسانيون في الحكم ، والأتراك في الحرب . فلذا لم يشتهر اليونان في التجارة ولا في الحرف ولا في الفلاحة ، بينما اشتهر الصينيون بالصياغة والنحت على الخشب والحياكة والنسيج .

أمّا العرب فليسوا تجّاراً ولا صُنّاعاً ، ولا أطباء ، ولا مزارعين ، بل أصحاب فراسة وقد لمعوا في الآداب واللغة والمنطق والتنجيم .

ان هذه الآراء ، على بدائيتها ، تنمّ عن رغبة في البحث الاجتماعي عند العرب منذ ذلك العهد . أو لا يستنتج من هذا أن الجاحظ مهّد السبيل لابن خلدون ؟ .

* * *

المرأة والحياة المنزلية

لم يكن للحياة العائلية دور بارز عند العرب في القرن الهجري الثاني . ومرد ذلك إلى طريقة حياتهم بقدر ما مردُّه إلى وضع المرأة بوجه عام . كانت الطبقات الأرستقراطية والبرجوازية تصرف أوقات الفراغ بطلب الملذات بينما كانت الطبقة الفقيرة تكاد لا تعرف للفراغ معنى . أما الأتقياء فكان لفرائض دينهم ما يشغلهم عن الاهتمام بأي شيء آخر عند الانتهاء من أعمالهم .

وكان الجاحظ قليل الايمان بمنطق المرأة لذا ينسب إليها وإلى أشباهها من

---

(1) الحيوان ، ج4 ، صفحة 70-71 و ج5 ، صفحة 35-36 و ج5 ، صفحة 326 .

الرجال كل الحكايات الوهمية، لكنه مع هذا كان يراها مساوية للرجل فلا يضن بالدفاع عنها ناسباً الضعف إلى من لا يستطيع أن يثبت حقوق الآباء إلا بإنكار حقوق الأمهات. ودعماً لوجهة نظره وضع رسالة «في الناس والرجال» ودرس خصائص كل جنس والمجالات التي يبزّ فيها الواحد الآخر.

وإذ يعترف أبو عثمان بالتعاون الاجتماعي البارز بين وضعي الرجل والمرأة في عصره، يعترف أيضاً بتحسن ملموس في وضع المرأة بالنسبة لما كانت عليه وذلك بفضل الإسلام.

وينتهي به درس واقع المرأة في عصره إلى استهجان انحباس النساء وإلى الكرز بتثقيف المرأة ورفع مستواها وتحريرها من استبداد الرجل.

أمّا الحياة المنزلية فكانت مزدهرة بالنسبة إلى المحظوظين نظراً لتدفق الخير على أسواق بغداد والبصرة. ففي رسالة «التبصر في التجارة» المنسوبة إلى الجاحظ عرض وافٍ للحركة التجارية في ذلك العهد وطرق البذخ التي كان يعمد إليها أبناء النعمة في حياتهم.

وبفضل اختلاط العرب بالفرس تطوّر الطبخ الذي كان بسيطاً بدائياً عند العرب إلى فنّ له مقوّماته وأساليبه. فكانت تؤدّب المآدب وتولم الولائم في الحفلات الخاصة والعامة على أسمى ما عرفه الأكاسرة والمقرّبون منهم.

ويروي لنا أبو عثمان بالتفصيل المآكل والمشارب وخصائص غرف الطعام حتى لنخال أننا نعيش في جوّها الماتع.

ويذكر أيضاً كلّ ضروب الطعام المألوفة في ذلك العصر وأنواع الدعوات إليه والمناسبات التي تتيحها ومنها العرس، أي وليمة القران، والخرس وهو الطعام الذي يُتّخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء، والأعذار وهو طعام الختان والوكيرة، أي طعام البناء. كان الرجل يطعم من يبني له، وإذا فرغ من بنائه تبرّك بإطعام أصحابه ودعائهم[1]، ثم يذكر النقيعة وهي ما ينحر من الابل، والعقيقة

(1) البخلاء، صفحة 248.

وهي دعوة على لحم الكبش .

والدعاء إلى هذه الأصناف من الطعام كان منه المذموم ومنه الممدوح . وفي هذا يقول الجاحظ[1] : فالمذموم النّقرى والممدوح الجفلي . وذلك إن صاحب المأدبة وولي الدعوة إذا جاء رسوله ، والقوم في أحويتهم وأنديتهم ، فقال : أجيبوا إلى طعام فلان ، فجعلهم جفلة واحدة ، وهي الجفالة ، فذلك هو المحمود . واذا انتقر فقال : قم أنت يا فلان ، وقم أنت يا فلان ، فدعا بعضاً وترك بعضاً ، فقد انتقر .

أما الطعام المذموم فكان على ضربين : أحدهما طعام المجاوع والحطمات والضرائك والسّباريت[2] واللئام والجبناء والفقراء والضعفاء من ذلك الفث[3] والدّعاع والهبيد والقرامة والقرّة والعسوم ومنقع البرم والقصيد والقد[4] والحيّات . أما الفظّ فإنه وإن كان شراباً كريهاً فليس يدخل في هذا الباب ، وكذلك المجدوح . أما الفظّ فإنه عصارة الفرث إذا أصابهم العطش في المفاوز ، وأما المجدوح فإنهم إذا بلغ العطش منهم المجهود نحروا الإبل وتلقوا ألبابها بالجفان كيلا يضيع من دمائها شيء . فإذا برد الدم ضربوه بأيديهم ، وجدحوه بالعيدان جدحاً حتى ينقطع ، فيعتزل ماؤه من ثقله ، كما يخلص الزبد بالمخض ، والجبن بالأنفحة ، فيتصافنون ذلك الماء ويتبلغون به ، حتى يخرجوا من المفازة .

ويمضي الجاحظ في شرح مختلف الطعام من الهريسة والقرنبية ، إلى الثريدة ، الى الفجلية إلى الفالوذج ، ويبيّن خصائص كل منها وفوائده .

وبعد الطعام وضروبه يعدد أبو عثمان الأدوات المنزلية ومصادرها وكيفيات

(1) البخلاء ، صفحة 248 .

(2) المجاوع : الواحدة مجاعة . الحطمات : الواحدة حطمة ، السنة الشديدة . الضرائك : الواحد ضريك : الفقير البائس . السباريت : الواحد سبروت : المحتاج المقل .

(3) نبت يختبز حبه ويؤكد في الجدب .

(4) الدعاع : حبة سوداء يأكلها فقراء البادية . الهبيد : الحنظل . القرامة : نحاتة القرون والأظلاف . القرة : الدقيق المختلط بالشعر . البرم : ثمر شجر العضاه .

استعمالها فإذا قرون البهائم تستخدم كالمشاجب اليوم، وإذا الإمعاء تصنع أوتاراً، والعظام تذوب لتستعمل شحماً للمسارج.

ولا يغفل الجاحظ عن ذكر أدوات التزيين عند النساء والرجال[1]، ولا وسائل الترفيه ومنها النرد وتربية الحمام. ويشير إلى العادات المتبعة على الموائد، وإلى الألبسة التي كانت ترتديها طبقات الشعب المختلفة، وإلى فرش القصور والدور، وإلى اللياقات الاجتماعية وما إليها من عُرف وتقليد[2].

الحركة الأدبية

ليس من السهل التفريق بين الحياة الأدبية والحياة السياسية الدينية عندما يكون تفسير الكتب المقدسة الدافع الأول إلى التنقيب اللغوي والبحث في الشعر القديم، وعندما يستوحي الشعراء مظاهر النشاط السياسي في مديحهم وفخرهم وحتى في غزلهم أحياناً. إلا أنه كانت تقوم مناظرات لغوية وأسواق أدبية مستقلة في المربد مثلاً أو في البلاط. وكثيراً ما اشترك الجاحظ فيها. وكان يأخذ على المثقفين في عصره قلة انصرافهم إلى الفكر رغم تهيؤ الجو الحر الملائم لازدهاره، كما يأخذ عليهم انصرافهم إلى شؤون اللغة إذ حشوا أدمغتهم قواعد وجوازات صرفية ونحوية حتى لم يعد ثمة مجال للعناية بالقضايا المفيدة[3]. وقد وجه نقداً لاذعاً في هذا الباب إلى معلمه الأخفش فعاب عليه غموضه المقصود[4].

إلا أن أبا عثمان أغضى عن نقد الانصراف إلى جمع الشعر القديم لأنّ ضرورة الرد على الشعوبية اقتضت هذا العمل و لم يتوانَ هو نفسه عن القيام بهذه المهمة في كتابه «البيان والتبيين». وقد ذكر في هذا الكتاب كما في غيره كـ«البخلاء»

---

(1) الحيوان، ج1، صفحة 37 و97.

(2) البيان، ج3، صفحة 63 و66.

(3) على هامش الكامل للمبرد، ج1، صفحة 26-27.

(4) الحيوان، ج1، صفحة 45.

و «الحيوان» أشعاراً رواها ، على ذمة الأصمعي . ولكم أظهر إيثاره الشعر الجاهلي على الشعر المعاصر ![1] .

وأورد الجاحظ ، في حديثه عن الأدب والأدباء في عهده ، تفاصيل مفيدة عن طريقة كلامهم ، فإذا بعضهم يُلحن كالنظّام مثلاً[2] ، وبعضهم يُحسن التجويد . وكان يرى في أبي عبيدة الخارجي ، على رغم اختلافهما السياسي ، العالم الأمثل الذي يلم بشؤون المعرفة كافة . أما بشّار بن برد وإبّان اللاحقي فما خصّهما بأي مديح ، بل رأى فيهما الزندقة المجسدة . وأما أبو نواس فلم يذكره بخير ولا بشر ، وليس لدينا ما يفسر هذه اللامبالاة .

وللسجع شأنه في كتب الجاحظ وقد كان رائجاً في ذلك العهد . وكتب في تأييده أنه وسيلة فعالة لحفظ المعرفة لأن موسيقى القوافي تساعد على الاستظهار .

وهكذا يرينا الجاحظ في هذا العرض التحليلي الدقيق شريطاً خصباً بالصور عن الحياة في عصره . فلولاه لما تكاملت الفكرة التاريخية عن ذلك المجتمع ولما توضح عدد كبير من دقائقه ودخائله .

---

(1) الحيوان ، ج1 ، صفحة 37 .

(2) الحيوان ، ج1 ، صفحة 36 والبيان ، ج1 ، صفحة 137 .

قيمة شهادة الجاحظ على
مجتمع عصره

الآن وقد استعرضنا أهم الحقول التي تناولها الجاحظ بنقده وتصويره، يرتسم أمام أذهاننا السؤال التالي: ما الفائدة اليوم من شهادة الجاحظ على مجتمعه بعد انقضاء ألف عام عليها؟ هل لها قيمة حقيقية في الحقول الأدبية والتاريخية والمذهبية؟

القيمة الأدبية

كثر عدد المؤرخين والكتّاب العرب الذين درسوا ونقدوا المجتمع العراقي في العصر العباسي. وبين هؤلاء من وفّر معلومات أكثر مما وفّر الجاحظ (المسعودي والأصفهاني مثلاً)، إلاّ أنّ أبا عثمان بقي مع هذا، في نظر النقّاد، شاهد عصره الأوّل. فما هو السبب الأساسي؟[1]

يبدو أن ميزة الجاحظ الأولى هي إحياء موصوفه وترسيخه في الأذهان. فهو لا يسرد الوقائع سرداً مملاً جافاً. على غرار أكثر المؤرخين، بل يحبو أوصافه نفحة حياة تجعلها تتجلى لنا بوضوح. وقد اتّبع وسائل شتى لبلوغ غايتها سنتناولها تفصيلاً:

وصف الأشخاص

ليست ملكة الملاحظة، على أهميتها، هي التي جعلت لنقد الجاحظ قيمته الفريدة، بقدر ما هي طريقة عرض أشخاصه وبعثهم أحياء. لقد نفذ إلى نفسية

---

(1) البخلاء، صفحة 96.

موصوفه ودرس الصلة بينها وبين الحركات الخارجية والملامح والانفعالات : من كلمة عفوية ، إلى إشارة خاطفة ، إلى نظرة عابرة . فهو إذ يصف لنا البخيل الجشع نخالنا نشاهده أمامنا بنهمه وتكالبه : «كان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر وسدر وانبهر ، وتربّد وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر . فلمّا رأيت ما يعتريه ، وما يعتري الطعام منه ، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقليّ . ولم يفجأني قط وأنا آكل تمراً إلا استفّه سفّاً ؛ وحساه حسواً ، وزدا به زدواً ، ولا وجده كنيزاً إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنيها ، ويقلّها من الأرض ، ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضاً ، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتي عليها جميعاً . ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والاثلاث . ولم يفصل تمرة قط من تمرة . وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق . ولا رمى بنواة قط . ولا نزع قمعاً ، ولا نفى عنه قشراً ، ولا فتشه مخافة السوس والدود . ثم ما رأيته قط إلا وكأنه طالب ثأر ، وشحشحان صاحب طائلة . وكأنه عاشق مغتلم ، أو جائع مقرور»[1] .

إنه لا يدرس أشخاصه في المطلق ، بل في أوضاع معينة مفصلة تكشف عن أعماقهم بشكل بليغ . لقد عرف كيف ينزع القناع عن وجوههم ليظهرهم على حقيقتهم ويحملنا على مشاطرته رأيه فيهم فنميل إلى بعضهم ونكره غيرهم .

والجاحظ ، بعد ، ينظر إلى وجه واحد من وجوه أشخاصه . وهنا سرّ تفوقه . فالبخيل عنده ليس بخيلاً فقط ، لكن البخل هو العامل الرئيسي الذي يوجه حياته حتى ليصبح تجسيداً للبخل فتمحي فيه سائر الخصائص .

أما إنشاؤه فهو سلس على متانة سبك ، بعيد عن التصنع والغموض على وجه الإجمال[2] . فالجاحظ ، من هذا القبيل ، أقلّ كتّاب العرب اهتماماً بالتزويق اللفظي والتنميق البياني . قال بديع الزمان في وصف كلامه : «بعيد الإشارات ،

---

(1) البخلاء ، صفحة 96 .

(2) يؤخذ عليه بعض الغموض أحياناً في استعمال ضمائر الغائب فيلتبس المضمر على القارئ .

قريب العبارات، قليل الاستعارات، منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة؟ أو لفظة غير مصنوعة؟» .

كان دأبه أن يعبّر بوضوح وعفوية بلغة مرنة غنية بالمفردات والمرادفات. وكان يعنى عناية خاصة باختيار اللفظة التي تستوفي التعبير عن المعنى المقصود، فلا يستنكف عن استعمال التعابير الواقعية واللهجات العامية وخصوصاً في سرد الحوار حرصاً منه على إيحاء صورة تامة عن موصوفاته في أجوائها المختلفة.

«ومتى سمعت، حفظك الله، بنادرة من كلام الأعراب، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، ومُلحة من ملح الحشوة والعظام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو أن تتخير لها لفظها حسناً، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سريّاً، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها»[1] .

أمّا جملته فهي على الغالب وجيزة أنيقة. وهي قوية الحبك حتى عندما تكون ثقيلة التركيب.

هذا الأسلوب السليم جعل للجاحظ أتباعاً كثيرين طوّروا العربية من بعده وليّنوها وجعلوها أشد ملاءمة للتعبير عن مقتضيات العصر.

وقد يكون أهم ما يؤخذ على الجاحظ انتقاله من موضوع إلى موضوع حتى ليضيع القارئ ويغيب عنه أساس البحث. فهو مثلاً كان لا يتورع عن مناقشة فكرة فلسفية دقيقة رأساً بعد سرد نادرة أو وصف حيوان، وكأنه في حديث لا غاية له. وهو إلى هذا قلّما توخى الدرس الأسلوبي المستند لأي من المواضيع، بل كان حسبه أن يعالج كل مسألة كيفما اتفق له.

(1) البيان والتبيين، ج1، صفحة 81.

ضحك الجاحظ

كان أبو عثمان مفطوراً على التهكم. كان يحب النكتة للنكتة، يقولها حتى لو انقلبت عليه. وكثيراً ما كان يقول أن في الجدّ إذا استمر إرهاقاً للذهن وصرفاً عن الموضوع. فالكتب أيّاً كان نوعها حتى ولو عالجت شؤوناً خطيرة، يجب أن لا تخلو من الهزل والتسلية تفريجاً عن القارئ وعوناً على حصر اهتمامه.

«وإن كنا قد أمللناك بالجدّ، وبالاحتجاجات الصحيحة والمروّجة، لتكثر الخواطر، وتشحذ العقول، فإنا سننشطك ببعض البطالات، وبذكر العلل الظريفة، والاحتجاجات الغريبة، فربّ شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه من السرور والضحك والاستطراف ما لا يبلغه حشد أحرّ النوادر، واجمع المعاني، وأنا استظرف أمرين استظرافاً شديداً: أحدهما استماع حديث الأعراب، والأمر الآخر، احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً، فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب، ولو إن ذلك لا يحل لكان في باب اللهو والضحك والسرور والبطالة والتشاغل ما يجوز في كل فن، وسنذكر من هذا الشكل عللاً، ونورد عليك من احتجاجات الأغبياء حججاً، فإن كنت ممن يستعمل الملالة، وتعجل إليه السآمة، كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك، وجماماً لقوتك، ولتبتدئ النظر في باب الحمام، وقد ذهب عنك الكلال، وحدث النشاط، وإن كنت صاحب علم وجد، وكنت ممرناً موقَحاً، وكنت إلف تفكير وتنقير، ودراسة كتب، وحلف تبيّن، وكان ذلك عادة لك، لم يضرك مكانه من الكتاب، وتخطيه إلى ما هو أولى بك، وعلى أني قد عزمت، والله الموفق، إني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الأحاديث، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل، فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة، والأغاني الحسنة، والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار

الكتب هذه السيرة، كان هذا التدبير لما طال وكثر اصلح، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً»[1].

وفي سبيل الدفاع عن هذا المبدأ في الضحك للتشويق، يستعين الجاحظ بالكتب المقدسة وبالطب وبالعلماء. ولعل تشاؤمه بالحياة جعله ينصرف إلى الضحك والتبشير به رغبة في الذهول عن واقعه المرير.

القيمة التاريخية

هل لشهادة الجاحظ على مجتمعه غير القيمة الأدبية؟ هل لها قيمة تاريخية ما؟.

إذا كان التاريخ بعث الماضي بكامله، أي تصويراً حيّاً ملوّناً كاملاً، أقصى المستطاع، وموحياً على الأخص يُعيد إلى ذهن القارئ الزمن الماضي، فلا شك أن لشهادة الجاحظ شأنها لا سيما بالنسبة إلى مؤرخي الإسلام. وقد أفسح له المستشرق سوفاجيه[2] مكاناً بين المؤرخين مبرّراً ذلك بقوله إن دقة ملاحظاته وحدّة أوصافه تجعلانه شاهداً محترم الرأي على مجتمع عصره.

والواقع إن الجاحظ شاهد محترم الرأي حقّاً إذا سلّمنا بأن الاحترام يقوم على دعمتي العلم والإخلاص. وهنا لا بدّ من التمييز بين قسمين من نتاجه: القسم الموضوعي الذي يسرد فيه الوقائع التي شهدها، على ما هي، والقسم الذاتي الذي يغلب عليه النقد.

فالجاحظ كشاهد لا تُعوزُه الكفاءة ولا الموضوعية، فقد مكّنته أوضاعه الخاصة من أن يرى ويدوّن ويستخلص. وكان له من ذوقه السليم ما جنّبه الخطأ في غالب الأحيان.

تناول أبو عثمان الأشياء التي رآها بأم عينه والناس الذين عرفهم عن كثب.

---

(1) الحيوان، ج3، صفحة 2.

(2) مؤرخو الإسلام.

وبما أنه كان دقيق الملاحظة، يعلّق أهمية على دقائق الأمور، فقد استطاع أن ينفذ بأنظاره الحادّة من خلال كل وجه، وكل حركة، ليُشبع فضوله أولاً ثم يسجل ملاحظاته من بعد. وهكذا حفلت أوصافه بالتفاصيل النابضة بالحياة والتعليقات الشخصية المفيدة، والانطباعات القوية المدلول. وهي تشكل سجلاً غنياً منوّعاً لحياة المجتمع العباسي فنعلم بفضله كيف كانوا يعيشون في بغداد والبصرة، وما كانت مواضيع أحاديثهم، وما كانت مآكلهم ومشاربهم وملابسهم، وكيف كانت أوضاع كل حزب وكل فرقة وكل شعب من الشعوب. ويزيد في قيمة هذا السجل الحي أنه عفوي يخلو من التعقيد. ولطالما جهد الجاحظ أن يحلل ويعمق معطيات الاختبار البديهية ليتوصل منها إلى اعتبارات عامة تهم علم الاجتماع. وكان له من حرية التصرف ما جعله يتخطّى العرف والتقليد فيضع أسساً نقدية جديدة.

الناقد

بين آثار الجاحظ ما أوحته عوامل ذاتية حاول فيها إمّا أن يدافع عن رأي خاص وإمّا عن موقف سياسي معيّن أو أن يحمل على خصوم وأفكار معادية. فهو في مثل هذه الحالات لا يبيّن الوقائع كما هي، بل بالنسبة إلى تأويله الخاصّ وعلى ضوء نزعاته الدينية أو السياسية أو العاطفية. ألم ينسب إلى الأمويين وعُمّالهم كل الجرائم والمجازر والظلامات؟... وهل نظر إلاّ إلى العيوب في الأقليات الدينية التي وصفها؟...

ثم أية ثقة يمكن أن يوحيها كاتب، كالجاحظ، يلعن اليوم ما باركه بالأمس جرياً مع نزوات طبعه أو مصالحه. أما حمل تارة على الإمام علي وامتدحه تارة بذات الحمية؟ ألم يمجد فضل الموالي في رسالة ليرهقهم ذمّاً في غيرها؟

إن كل هذا يؤيد قول ابن قتيبة الذي نسب إليه التقلب في الرأي على الدوام.

ويبقى مع هذا أن هذه الوثائق لو دققها المؤرخ الواعي لاستخرج منها بعض الشهادة نظراً لدقة الملاحظة العجيبة التي ما كانت لتفوته.

وهنالك عقبة أخرى لا بدّ من تداركها وهي أن الجاحظ كان يسلّم أحياناً ببعض آراء وأفكار مألوفة بدون أن يناقشها ويعلل أسبابها فيستخلص منها أحكاماً عامة لا ترتكز دائماً إلى أس وطيد.

ولكن مهما يكن من أمر، فإن نقد الجاحظ الاجتماعي يوفر فائدةً أكيدة للمؤرّخ لأن صاحبنا عرف كيف يعرض الخاصّيات الرئيسية التي ميّزت عصره.

القيمة المذهبية

لا بدّ لقارئ آثار الجاحظ أن يسأل نفسه: بوحي أي مذهب قام هذا المؤلف بنقده الاجتماعي؟

أن يكون صاحب «كتاب الحيوان» قد توخّى أوّلاً إصلاح المجتمع، فذلك أمر يصعب إثباته. فقد سبق لنا أن رأينا العوامل المختلفة التي أوحت إليه نتاجه. ولكن رغم أنه لم يستهدف الإصلاح للإصلاح فإنه ما كان ليبرأ من ثقافته المنطقية ومن نظرته إلى الكاتب كمرشد واع. فمن مجمل دراسته للمجتمع التي ترتدي تارة طابع الموضوعية وتارة طابع النقد الذاتي، تتوضح أفكار اجتماعية متفرقة لها أهميتها.

على هامش اللوحة التي رسمها الجاحظ لمجتمع عصره اتفق له أن تطرق لعدة معضلات في مجالات شتى: من الدين، إلى المجتمع، إلى السياسة، إلى الأخلاق، إلى العلم... وكثيراً ما انتهى إلى خلاصات جديرة بالاهتمام. وما كانت روح الدعابة التي انطوت عليها لتحول دون إثارة تفكير القارئ وحمله على توخّي الاصلاح.

مع هذا ما ادّعى الجاحظ الفلسفة قط على أساس مذهب مُركّز بل كان همّه أن يلاحظ أكثر من أن يمذهب ملاحظاته. ولكن، إن أعوزه المذهب المنسجم المتكامل، فما أعوزته الاستنتاجات والنظرات الحكيمة التي قد تؤلف، على نوع ما، مجموعات منسجمة سنحاول درسها.

الإنسان كائن اجتماعي

كان الجاحظ، وهو تلميذ مدرسة أرسطو[1]، يرى في الإنسان كائناً سياسياً لا ينفصل عن المجتمع، لا معنى له وحده ولا أثر، لاستمرار النسل ولا للدفاع عن حياته أو صيانتها[2]. فالإنسان لا يصبو إلى الحياة الاجتماعية لحاجة مادية ملحة فقط بل أيضاً وخصوصاً في سبيل التبادل الذهني.

كيف رام الجاحظ هذا الإنسان «العالم الأصغر»[3]، العنصر الأساسي في المجتمع؟ ثلاث خصائص استوقفته في هذا المجال:

العقل

من الطبيعي أن يجعل الجاحظ، وهو المشبع من المنطق، العقل حكماً في النظر إلى الأمور، فيعرض على محكّه شؤون الدِّين والتقاليد والسياسة. لقد وعى وعياً جلياً التناقض البارز بين مستوى الثقافة المنطقية الذي بلغه العقل البشري والمستوى الذي تشبّث به معظم الناس الذين يجرون وراءهم ثقل التقاليد البائدة والخرافات السخيفة. ونتيجة لوعيه هذا توجه بحمية ومنطق وهزء إلى الجمهور لا ليحمله على نبذ هذه الاعتقادات الغارقة بالجهل وحسب، بل ليغمر بالسخرية كل ما يصدم العقل ويأباه الذوق السليم. ومن هنا كانت ثورته على المشعوذين، مفسّرين كانوا أم منجمين، وعلى الأساطير والخرافات والحماقات.

لقد كان على إيمان بان كل تقدم في نشر أساليب المنطق وفهم الدِّين على حقيقته يقابله تقدم في ازدهار الفضيلة ركيزة استمرار كل مجتمع. وهذا يفسر اندفاعه إلى دحض كل تأكيد عفوي إلى تحرير العقل من كل وهم وهوى يؤثر على تطلعه إلى الحق!

(1) فلسفة أرسطو كما كانت تفهم عهد ذاك أي ممزوجة بالأفلاطونية المستحدثة.

(2) الحيوان، ج1، صفحة 42.

(3) الحيوان، ج1، صفحة 213.

قال الجاحظ إن الاختبار الحسي يقف عند الظواهر[1] يشهد الواقع ويقف عنده. فالعقل وحده يميّز بين الخير والشر ويوفّر النمو للكائن البشري. فالعقل في الإنسان هو الجوهري والأفضل[2] غير أنه مغمور بمعطيات الحس ولا بدّ من تحريره أوّلاً. وهنا لا بدّ من العاطفة لإثارة تفتق الذهن، فيكون بالتالي للخيال والحس شأنهما في توجيه العقل[3].

الأخلاق

لم يكن الجاحظ مصوراً اجتماعياً بارعاً فقط بل كان أيضاً مرشداً أخلاقياً، بليغ الأثر. فهو ان حمل على المرائين والمستثمرين والحاسدين والمكدّين وصغار النفوس ما كانت التسلية رائده بقدر ما كان الإصلاح عن طريق ردة الفعل[4]. بيد أنه ما اكتفى بوصف أو نقد ما يجري، بل مضى إلى أبعد. مضى يوجّه نحو الأكمل، ويرشد إلى الطرق الفضلى التي تسمو بالكائن البشري نحو تحقيق مثله الأعلى في الحياة.

إن الجاحظ، العامل بوحي مذهبه القائل «بالأمر المعروف والنهي عن المنكر»[5] وضع أكثر من فصل في السلوك الخلقي. وتتلخص آراؤه المناقبية بشيء من المحافظة الاجتماعية والتمسك بالفضائل التي يفخر بها المسلم ومنها الإحسان والبر بالوعود والكرم والتعاضد والواجب الإنساني والاعتدال في طلب اللذة وتسليط الإرادة على الهوى. وهذه الصفات قمينة بتوطيد ركيزة المجتمع الخلقية.

وهذا الاعتدال هو نتيجة التأثر بالفلسفة المشّائية ورغبة الحد من الانحلال الخلقي المتفشي، وهو يأتلف وطبع أبي عثمان النزّاع إلى تسوية الأمور بالحسنى

---

(1) الحيوان، ج2، صفحة 116.

(2) التربيع والتدوير على هامش الكامل للمبرد، ج1، صفحة 43.

(3) الحيوان، ج1، صفحة 207.

(4) الحيوان، ج1، صفحة 97.

5 أحد أصول المعتزلة الخمسة.

من دون اللجوء إلى العنف .

والمبادئ الأخلاقية التي تسيّر الجاحظ في إرشاده استمدّها إجمالاً من القرآن الكريم والحديث والسيرة النبوية . وقد كان على يقين بأن الإنسان لن يكون سعيداً إلا إذا سار بهدي ضميره الحي وراقب أعماله بدراية وسمع إلى نصح المخلصين من أصدقائه واعتبر بمصاب غيره[1] .

رأى الجاحظ أن الإنسان لا يشكّل وحدة قائمة بذاتها بل هو جزء من كل أكبر ، أنه هو مختصر الكون[2] ، فعليه إذن أن يُصلح نفسه أولاً لأن الفساد الاجتماعي ليس إلا مجموعة الفساد الفردي ، وعليه أن يُحِلّ السلام لا في نفسه فقط بل في مجتمعه أيضاً لأنه متضامن معه .

هذه المناقبية ، الدينية الإيحاء ، كرز بها أبو عثمان إرضاءً لنزعته الميتافيزيقية وتلبية لحاجة عملية تدعم تأكيدات العقل الأولية لخير الإنسان العائش في المجتمع .

الطبيعية

استوحى الجاحظ ، في نقده الاجتماعي ، اختباره الشخصي بقدر ما استوحى ذوقه السليم . كان يرى أن التصرف الأمثل هو الذي يوائم الطبيعة والعقل على غير تعمل . فكل ما ابتعد عن الطبيعي ، أو كان ضغطاً على الآخرين ، أو كان كذباً وخبثاً واحتيالاً ، كان يثيره فيرفضه .

رأى مثلاً أن الغرور والخداع والبخل والجشع نواقص تحط من قدر الإنسان كإنسان ، فشن عليها حملة عنيفة رمت إلى إصلاح بشري جذري .

لتحقيق غايته هذه اعتمد الجاحظ طريقتين مختلفتين ، لكنهما تتكاملان أولاهما طريقة التعبير المباشر عن أفكاره بدون مواربة[3] ثم طريقة الإيحاء الموجه . فهو إذ

---

(1) البخلاء .

(2) الحيوان ، ج1 ، صفحة 113 .

(3) في أكثر من رسالة ومقدمة تطرق الجاحظ إلى السلوك الاجتماعي وأصول اللياقة .

يتهكم على المتعلمين والأغرار والبخلاء والجهّال فإنما يُطري من قبيل ردة الفعل البساطة والكرم والعلم والتواضع واحترام النفس.

المجتمع

إن المجتمع الأمثل، كما تصوره الجاحظ، يستهدف خير أفراده المشترك وازدهارهم واحترام حريتهم. ولا يتم هذا إلا بالتضامن الشامل بين أعضاء المجتمع لتأمين الاستقرار الضروري في نقطة الانطلاق، ثم بالسلطة التي توجه، كالرأس، سائر الأعضاء نحو الخير المشترك وتكبح شططهم، ثم الدِّين كنظام أخلاقي يُنمي الفضائل في مختلف طبقات الشعب ويساعد على تطوير الإنسان لتحقيق نزعاته غير الأرضية[1].

أما التضامن فلم يزد فيه أبو عثمان، على ما جاء به القرآن الكريم والحكمة اليونانية[2]. فقد كان على اقتناع تام بأن كل ظلامة فردية لا بدّ أن تُسيء إلى المجتمع كجسم منظم متضامن.

أمّا موضوع السلطة فقد حمله على إبداء آراء فريدة حول الإمامة وضرورتها ودورها ومقتضياتها. وقد دفعه إليها عدم ثقته بالإنسان الذي اعتبره سيئاً بطبيعته، أنانياً، فاسد الخلق، لا يفتش إلا عن لذته رغم المظاهر التي يُغلّف بها غريزته[3]. ودفعته إليها ايضاً نظرته الخاصة إلى المجتمع وقد وعاه قائماً على مفترق طريق بين الحقيقة الموضوعية التي يفرضها العقل وبين الروح التي توحي إليه ناموسها. ولا بدّ بالتالي من وسيط للانتقال من فكرة الخير الأسمى إلى واجب الفرد لأجل تحقيقها. وهذا الوسيط هو الإمام الذي يتولى السلطة[4]. وقد دارت فكرة المعتزلة في جوهرها حول هذا المحور الدقيق.

---

(1) الحيوان، ج2، صفحة 116.

(2) الحيوان، ج1، صفحة 42.

(3) رسائل، صفحة 254-256.

(4) رسائل، صفحة 271.

لكن اختيار الإمام أثار معضلة جديدة لدى أبي عثمان، لأن السيد المطلق الذي يفرض القانون ويوجه الجماعة نحو خيرها الأسمى يجب أن يكون جديراً بالثقة، يتحلى بالفضائل السامية. لقد شغلت هذه المسألة الجاحظ كما شغلت أفلاطون من قبل. إلاّ أنّ صاحبنا لم يتوقف، كالفيلسوف اليوناني، عند توزيع السلطة بين الرجال الذين، إن اجتمعوا، جمعوا الفضائل المطلوبة، بل اعتبر وحدة السلطة في شخص واحد لا مناص منها لتنسيق التوجيه العام وتحديد التبعات، فاقترح أن يتولى السلطة ذلك الذي يدنو من المثل الأعلى أكثر من سواه[1].

ورأى أن مبدأ السلطة التسلسلية الذي يفترض وجود الإمام في رأس الهرم يقوم على فكرة عدم المساواة الطبيعية بين البشر كما على حاجة الأدنى إلى الأعلى بدون صحة العكس[2]. وهذا المبدأ الذي اتُّخذ أساساً للنظام الإقطاعي بدأ يتمذهب في القرون الوسطى، حتى قضت على شقّه الثاني فكرة المساواة والمصلحة المشتركة بين الأدنى والأعلى، منذ قيام الثورة الفرنسية.

الدين

في حقل الدين، كما في سائر حقول النشاط البشري، استرشد الجاحظ عقله. فهو ما اعتنق مذهب المعتزلة إلا لأنه يحفظ للعقل السليم منزلته بجانب الإيمان، لأن العنصر الثاني لا يُناقض العنصر الأول، بل يساعد على إكماله.

هذا التعلق الصريح بالدين مصدره اعتقاد عميق منه بأنه ليس ثمة حقيقة في المعمور إلاّ وتتلاءم وحقيقة التعاليم المنزلة من السماء. غير أن هذه التعاليم لا يجوز، في حال من الأحوال، أن تناقض العقل لأن العقل والوحي ينبثقان كلاهما عن الله وهما بالتالي مترابطان متكاملان.

---

(1) عبّر عن رأيه هذا بنوع خاص في رسالته حول استحقاق الإمامة وهي الرسالة التي كانت، على ما يقال، سبب اتصاله بالمأمون.

(2) أوحاها إليه أرسطو.

لئن تسرب الشك أحياناً إلى الجاحظ ، فما ذلك قطعاً لمجرد الشك والتشكك ، بل سبيلاً لليقين ، لأن من يألف الشك يتعرض للوهن والضلال[1] . إنه الشك الأسلوبي بعينه ، شرط كل بحث رصين ، الذي ساور أرسطو من قبل ثم ديكارت وبايكون وغيرهما من بعد فوجّههم إلى السعي وراء يقين اشدّ وأكمل[2] .

كان مفهوم الجاحظ للدّين ، مثل مفهومه للمُلك : قوة محافظة في جو انضباط اجتماعي تتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الدفاع عن المحرومين . إنه ، بجوهره ، مظهر من مظاهر مطلقية الجاحظ تبرر وجوده نظرته إلى الإنسان ككائن سيء لا يكبح بهيميته الطبيعية إلا الخوف من العقاب أو الرغبة في الثواب[3] .

نظرات في علم الاجتماع

لئن لم يكن للجاحظ مذهبه الخاص في علم الاجتماع يستهدف إدخال تفسير الظاهرات الاجتماعية في نظرة عامة للمعمور فقد كانت له خواطر مبعثرة تناولت نفسية الشعوب وخصائصها وأثر البيئة والمناخ على المجتمع يمكن تلخيصها بما يلي :

شبّه المجتمعات بالكائنات الحية التي تنمو باطراد ، يفرض عليها تنوع البيئات والأوضاع التنوع في التركيب والانفعال . هكذا مهّد السبيل أمام النظريات الحديثة التي تقول بأن البيئة العنصرية والولادية تفرض على الأفراد عقليات وعادات وثقافات خاصة تبدو كأنها انعكاسات البيئة على الضمائر الفردية[4] .

لطالما أعلن الجاحظ أن فوارق المدنية والإمكانات عند مختلف الشعوب إنما تخضع لمواهب غريزية عند كل جنس كما تخضع إلى تركيبه وإلى الجو الذي

---

(1) على هامش الكامل للمبرد ، ج1 ، صفحة 84 .

(2) الحيوان ، ج6 ، صفحة 10 .

(3) الحيوان ، ج2 ، صفحة 88 .

(4) الحيوان ، ج5 ، صفحة 326 إلى 370 .

يعيش فيه[1] .

ومن هنا استنتج أن كل شعب مدعو ، بحكم أوضاعه الوراثية والطبيعية ، إلى أن يَشغل مقاماً لا بدّ أن يصل إليه . وهذه الحتمية تذكّر بنظريات الجنس والانتقاء التي شاعت في القرن الماضي ثم أخذت مطلقيتها بالتضاؤل اليوم[2] . إلا إن حتمية الجاحظ سيّرتها عناية إلهية تحرص دواماً على الانسجام التام في النظام الكوني .

---

(1) لقد أشار قبل ابن خلدون بقرون إلى أثر البيئة الطبيعية في الشعوب .

(2) قال به كذلك معاصره ابن الفقيه الهمداني .

خاتمة

إذا كان الجاحظ في حملاته على نقائص معاصريه أو في وصفه أوضاع حياتهم لم يستهدف إنشاء نظام اجتماعي جديد، فإنه قد أشار، من قبيل ردة الفعل، إلى أمور جوهرية لإصلاح الإنسان والمجتمع. لقد حرّك جملة أفكار هي في أساس المفاهيم القانونية والاجتماعية الحديثة كشرعية السلطة، وحرية الإنسان الطبيعية، والتأثير البيئوي، وسلطة الرئيس، وحقوق المرأة والتضامن البشري.

ولئن لم يكن له مذهب اجتماعي مركّز، أي منظَّم وموجّه بشكل يحمل إلى التسليم بمعطيات تقرّر السلوك الحياتي، فإنه عرض حصيلة اختبار طويل في خدمة الاستقراء الشخصي. فهو إذ وصف مجتمع عصره كما هو، ساخراً من خلله ونقصه، أوحى ضمنياً كيف أراده أن يكون. وهكذا يكون دشّن في النطاق الاجتماعي ركائز الأسلوب العلمي: أي الملاحظة والمقارنة فالنقد.

لقد رأى الجاحظ وأرى كل شخص من أشخاصه في بيئته الخاصة وثوبه الخاص وحركاته الخاصة، فلم يُعطِ عنهم رسماً تقريبياً ناصلاً، بل صوّرهم تصويراً واقعياً ملوناً. فقد سمع وأسمع كلاً منهم يتحدث بلهجته المميزة وإنشائه المألوف، فإذا القارئ لا يفرغ من دراسة آثاره إلا وفي ذهنه ما يُوهِم أنه عايش حقاً صاحبها وأبطاله على اختلاف أوساطهم.

إن النماذج البشرية العامة تستمر هي هي في الجوهر حتى لو تبدلت الأشكال تبدلاً ثورياً. ولقد نفذ الجاحظ، من خلال المظهر العابر، إلى أعماق النفس البشرية فبيّن خصائصها الملازمة في كل عصر ومصر. فالبخلاء والحسّاد والخليعات والسخفاء والمستثمرون واللصوص والمشعوذون وغيرهم ممن وصفهم أبو عثمان نخالهم أحياء في ما بيننا وفي جيلنا الحاضر ولكن في زي قديم.

المراجع

لن نذكر في هذا الثبت إلا أهم المراجع العربية رغم قيمة المراجع الأجنبية ولا سيما الفرنسية والألمانية والإنكليزية التي استعنّا بها وذلك رغبة في عدم التطويل.

ـ الأبشيهي : **المستطرف في كل فن مستظرف**، (القاهرة).

ـ ابن الانباري : **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، (القاهرة 1303هـ).

ـ ابن حزم : **كتاب الفصال في الملل والنحل**، 5 أجزاء (القاهرة 1317).

ـ ابن حوقل : **كتاب صورة الأرض**.

ـ ابن خلدون : **المقدمة**.

ـ ابن خلكان : **وفيات الأعيان وأبناء الزمان**.

ـ ابن رشيق : **العمدة**، (القاهرة 1325هـ).

ـ ابن العبري : **تاريخ مختصر الدول**، (بيروت 1890).

ـ ابن قتيبة : **أدب الكاتب**، (القاهرة).

ـ ابن قتيبة : **تأويل مختلف الحديث**، (القاهرة 1326هـ).

ـ ابن القفطي : **تاريخ الحكماء**، (القاهرة 1326هـ).

ـ ابن كثير : **البداية والنهاية**، 14 جزءاً (القاهرة 1348هـ).

ـ ابن المرتضى : **ذكر المعتزلة**، (حيدر آباد).

ـ ابن منظور : **لسان العرب**، (بولاق 1300-1307).

ـ ابن النديم : **الفهرست**، (القاهرة 1384هـ).

ـ أبو حيان التوحيدي : **الامتاع والمؤانسة**.

ـ أبو حيان التوحيدي : **تقريظ الجاحظ**.

ـ أبو ريده : **إبراهيم بن سيار النظام**، (القاهرة 1946).

ـ أبو الفداء : **مستطرف تاريخ البشر** .

ـ الشعري : **مقالات الإسلاميين** ، (اسطمبول 1929) .

ـ الأصفهاني (أبو الفرج) : **كتاب الأغاني** ، (بولاق) .

ـ أمين (أحمد) : **ضحى الإسلام** ، (القاهرة 1933) .

ـ البستاني (بطرس) : **كتاب دائرة المعارف** ، (بيروت 1882) .

ـ البغدادي (عبد القادر) : **كتاب الفرق بين الفرق** ، (القاهرة 1910) .

ـ البغدادي (الخطيب) : **تاريخ بغداد** ، (القاهرة 1931) .

ـ البلاذري : **فتوح البلدان** .

ـ الثعالبي : **يتيمة الدهر** ، 4 أجزاء (دمشق 1304هـ) .

ـ جبري (شفيق) : **الجاحظ معلم العقل والأدب** ، (القاهرة 1932) .

ـ حجي خليفة : **كشف الظنون** ، جزءان (بولاق) .

ـ حسين (إبراهيم حسن) : **تاريخ الإسلام السياسي** ، (القاهرة 1948) .

ـ الرفاعي : **عصر المأمون** ، 3 أجزاء (القاهرة 1927) .

ـ الزركلي : **الأعلام** ، قاموس التراجم ، 3 أجزاء (القاهرة 1928) .

ـ الزيات (حسن) : **التشيع لمعاوية في عهد العباسيين** ، (المشرق 1928) .

ـ زيدان (جرجي) : **تاريخ آداب العربية** ، 4 أجزاء (القاهرة 1924) .

ـ زيدان (جرجي) : **التمدن الإسلامي** ، (القاهرة 1913) .

ـ السمعاني : **كتاب الأنساب** ، (1912) .

ـ السندوبي (حسن) : **أدب الجاحظ** ، (القاهرة 1930) .

ـ السندوبي (حسن) : **رسائل الجاحظ** ، (القاهرة 1933) .

ـ الشهرستاني : **كتاب الملل والنحل** ، (ليبزيغ 1923) .

ـ الطبري : **تاريخ** ، 5 أجزاء (لايد 1879-1901) .

ـ الغزالي : **المنقذ من الضلال** ، (القاهرة 1359هـ) .

ـ الفاخوري (يوحنا) : **الجاحظ** ، (بيروت 1953) .

ـ كراوس والحاجري : **مجموعة رسائل الجاحظ** .

ـ كرد علي (محمد) : **رسائل البلغاء** ، (القاهرة 1913) .

ـ كرد علي (محمد) : **أمراء البيان** ، جزءان (دمشق 1939) .

ـ مبارك (محمد) : الجاحظ وفن القصة في البخلاء ، (دمشق 1940) .

ـ مبارك (زكي) : النثر العربي في القرن الرابع الهجري .

ـ المبرّد : الكامل في الأدب ، (القاهرة 1324هـ) .

ـ محيي الدين (عبد الرزاق) : أبو حيان التوحيدي ، (القاهرة 1949) .

ـ مردم (خليل) : أئمة الأدب الجاحظ ، (دمشق 1930) .

ـ المسعودي : مروج الذهب .

ـ المشرق : (مجلة تصدر في بيروت) .

ـ نادر (ألبير) : فلسفة المعتزلة .

ـ الهمذاني (بديع الزمان) : مقامات ، (بيروت 1954) .

ـ الهمذاني (ابن الفقيه) : كتاب البلدان ، (لايد) .

ـ ياقوت : معجم البلدان ، 6 أجزاء (ليبزيغ 1866-1870) .

ـ ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، 7 أجزاء (لندن) .

ـ اليعقوبي : (كتاب البلدان) .

فهرست

أبــو سلــوم المعتـــزلي